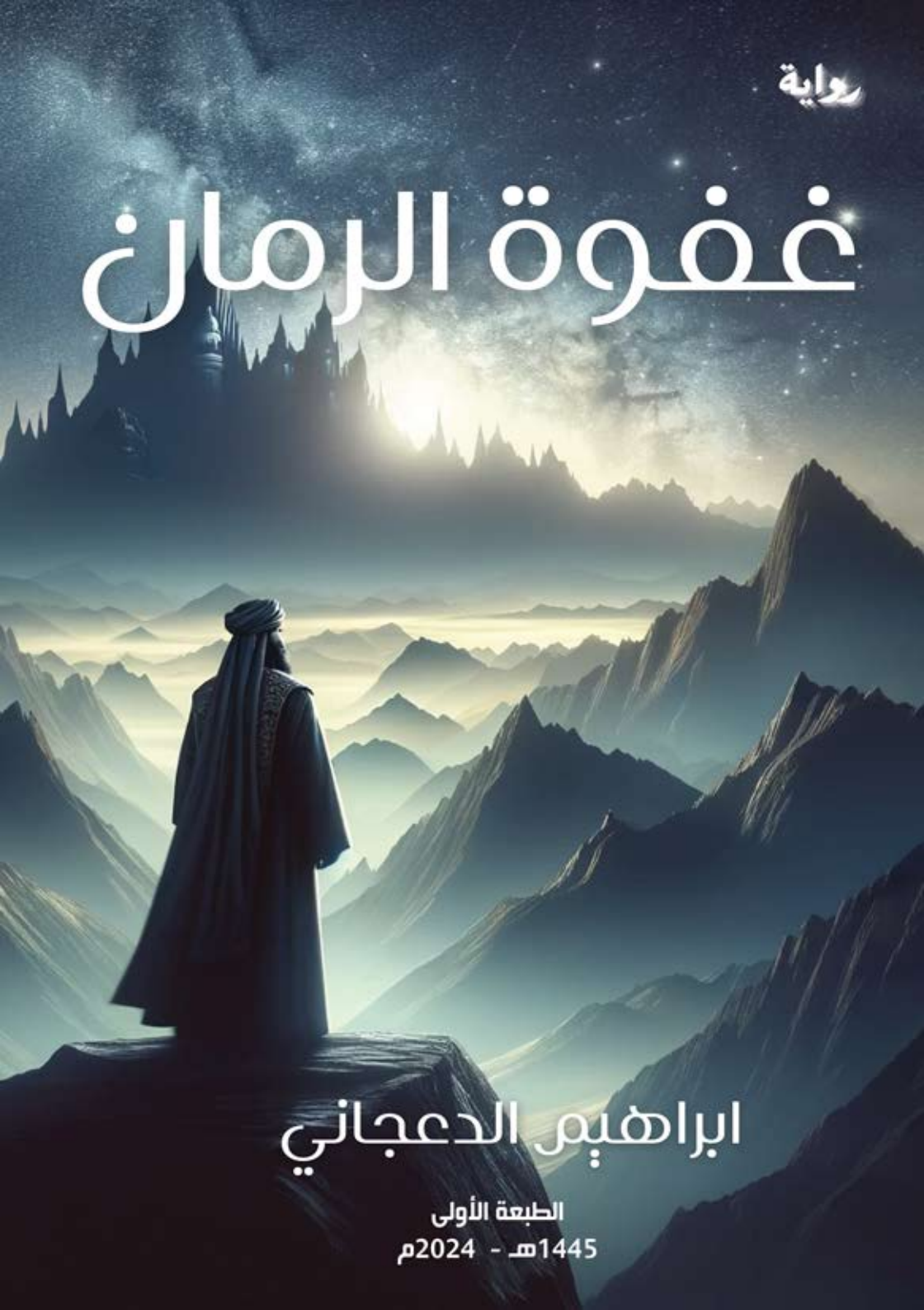

رواية

غفوة الزمان

ابراهيم الدعجاني

الطبعة الأولى
1445هـ - 2024م

غفوة الرمان

رواية

إبراهيم الدعجاني

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٤م

مؤسسة الحازمي للنشر

ⓒ مؤسسة محمد أحمد محمد الحازمي، ١٤٤٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدعجاني، إبراهيم سعد عبدالله
غفوة الرُّمان ./ إبراهيم سعد عبدالله الدعجاني- ط١. - جازان، ١٤٤٥هـ.
٢٢٤ ص، ١٤,٨٠ × ٢١ سم
ردمك: ٨-٩٦٢٢-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

رقم الإيداع : ١٧٢٢٣/ ١٤٤٥هـ
ردمك: ٨-٩٦٢٢-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

كل الحقوق محفوظة

مؤسسة الحازمي للنشر
ALHazmi Publishing

مؤسسة الحازمي للنشر
السعودية - ضمد
جوال : ٠٠٩٦٦٥٠٢٣٨٩٠٣١
Email: hazpubicarion@gmail.com

مُقَدِّمَة

انطلق الفارس مالك بن فهم الدوسي من أرض الأنبياء، مدججًا بكرامة العرب، إلى الأراضي المغبون أهلها، والمفروض عليهم ديانة مصادمة للمسيحية التي جاء فيها عيسى عليه السلام. أكمل المسير حتى أقام المملكة العربية العظمى، انصاعت له ولبعض أبنائه أراضي بمساحة قارة. وامتدت سيرته بين مملكة كبرى وصغرى، لكن لم تأفل أو تغيب عنها الشمس.

يقفز الملك على فرسه ذات ليلٍ مطير، يتتبع الحراس، فيسقط صريعًا بيد ابنه الذي علمه الرماية فلما استد ساعده رماه بخطأ جسيم، وعلى هذا النحو نسج الشعراء قصائد، تتعاطى الحكاية المأسوية.

الرواية التي بين أيديكم ليست سردًا تاريخيًا، ولا تصويرًا فوتوغرافيًا للأحدث، أنما هي رسم سريالي ديكودرامي متجدد يحمل في طياته الكثير من زخم تاريخ العرب قبل الإسلام، تتمايل

فيها الخطوط المستقيمة لتشكل منعطفات حادة تشع في جنابتها محبة العرب للسلام الذي توجه الهادي المصطفى في رسالة للعالمين.

يدخل بطلنا غفوة الرمان وهو البرزخ المتبوع بالأبدية، يتابع منها تفاصيل الحياة الجارية، يرويها بلا حزن أو أسىً، لكن حتمًا، الحزن سيصيب القارئ الواعي للصور الماثلة أمامه. التاريخ ذاتي النسخ، ينطلق ليبتدئ، ويبتدئ لينطلق.

أرجو لكم رحلة قرائية وفهمية ماتعة ..

إبراهيم الدعجاني

صكٌّ على قارعة التاريخ

قال أبو معشر المنجم: التواريخ أكثرها مدخول فاسد، والفساد يعتريها من أجل أن يأتي على سني أمة من الأمم من الأزمنة وتطول أيامه؛ فإذا نقلوه من كتاب إلى كتاب، أو من لسان إلى لسان، وقع الغلط بالزيادة فيه، أو النقصان منه.

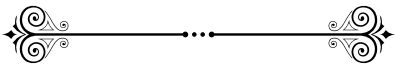

القرنُ الثَّاني للميلاد

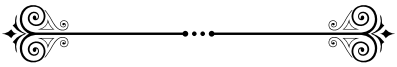

١

وضعت يدي على جرحي النازف، أتحسس آلام السم الجاري في عروقي، أخذت مني كل مأخذ، دخلت في غفوة برزخية، في صيف ٢٣١ للميلاد. حينها ماجت داخلي الذكريات، تراءت لي في فيضٍ منهمر من السماء، لم أعرف كيف حدث؟ ولم أهتم!

استحضرت كل شيءٍ مررت به في الحياة، بتفاصيلها الدقيقة، وتشعباتها الكثيرة، من شقاوة الطفولة وعبثياتها، وتأملاتي في الفضاء البعيد، وانغماسي في حكايات الأولين بمنعرجاتها المفرحة والبئيسة.

في طفولتنا كنا ملزمين بالإنصات بكل جوارحنا، لاستلهام العبر من كلَّما يقصه الآباء علينا، أما العم معاوية ذو العين الكريمة، والأنف المعقوف، كان يقطع حكايته الطويلة كطوله الفارع بين الحين والآخر، يختبر إنصاتنا بسؤال مفاجئ! حينها كنا نعتقد غباء السؤال، لكنه في حقيقة الأمر كان يستهدف به البلداء، الهاربون بخيالاتهم في المباعد الخلية.

يربطهم في شجرة الطلح، بالحبال التي تفتلها نساء تهامة من ليف النخل البيشي، يقضون ليلتهم تلك في ألم وكآبة، تنهشهم الدبابير، وتقرصهم الحشرات، لا معين لهم، أو مجيب لصرخاتهم.

رغم جسارتي وقوتي البدنية، إلا أنني كنت أهاب أن يصطادني عمي منخرطًا في خيالات، مبتعدًا عن التركيز معه، لأنه ليس من الخلق الذي ورثناه. الإنصات للكبار - خاصة - واجب ملح. فقد خلقنا الرب العظيم بأذنين على طرفي الرأس حتى نسمع ضعف ما نتكلم.

ثمة قصص وروايات كثيرة حفظتها بسردياتها، وتفصيلاتها، حد أني ذات حكاية، أجبت عن سؤال لم يكن موجهًا لي، صفعني عمي بابتسامة غيظ، معتبرًا ذلك من سوء الأدب.

أسرتنا الكبيرة منحدرة من دوس زهران، مستمدة دستورها من جدنا دعثان، دستور مطبوع في عقول الرجال، ليس لأحد خيار نقضه، أو الاعتراض على أحكامه، الكل ملتزم به، متعايش معه، وفي ظل ما اشتمل عليه من أعراف حتى القديم منها والمصادم للمعارف الجديدة والمتغيرة، أما الإخلال بأي منها، يقتضي عقوبة يقررها «العريفة».

العرَافة منصب قروي، ورثه عمي عن أبيه فهم عن جده غنم الدوسي في قريتنا، منذ ولادتي وعمي معاوية هو العريفة المخول بعقد جلسات التقاضي، وإنزال العقوبات.

كل شيء في السراة متسمٌ بالقوة والصلابة مثل جبالها الطاعنة صدر السماء. بيئة طبيعية صلبت عظامنا، واخشوشنت منها أجسادنا، ونبتت بفضلها عضلاتنا، حتّى قلوبنا صارت مثل صخورها الصلدة على الأعداء، بينما ينبجس منها ماء رقراق على الأهل والأحباب، في هذه النعم عشنا في ألفة ومحبة، كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو هبّت له كلّ الأعضاء بالنجدة والعون.

نتشارك في كل شيء، نتبادل المأكل والمشرب، ونتعاون في الملمات. نتعانق بقلوبنا كالأشجار في مزارعنا المصطفة بلا ضجيج.

لا نفارق الآباء، نجالسهم، نتسمع إلى أحاديثهم، ولا نتحدث إلا حينما يطلب منا الحديث. إذا وقفوا، نقف بعدهم، وإذا مشوا، مشينا خلفهم، لا نتقدم صفهم ولا نحاذي خطواتهم. نهبط معهم إلى الوادي، نعبُّ من سعادتهم سعادة وفرح.

وعندما يؤذن لنا، ننطلق مبتهجين بين الزروع، نستوحي منها الحب، نقلم أطرافها كما نقلم أظافرنا، ونعمل في الأرض بمحاريثنا القوية التي جلبها والدي فهم الدوسي، ذو البنية القوية، والشعر المجعد، والذقن البيضاء، جلبها من أسواق تهامة ذات زيارة للنبي عيسى عليه السلام، حيث عاونه في نشر دعوته التوحيدية، والمدافعة عنه من أعداءه الوثنيين.

كانت المحاريث قوية الصناعة، لها عصا طويلة منحوتة من خشب الزيتون الحجازي، ومقواه بالقطران الأسود، في أسفلها أربعة مسامير من الحديد الصلب، كنا نضرب بها الأرض الحجرية، نطرب من صوت ارتدادها، استخدمناها في حفر الجداول، ووسعنا الأحواض المتهدمة حول الأشجار.

كنا نتكلف الاستعداد لبرد السراة القارس، نرطب أيدينا ووجيهنا بالسمن البرّي الذي تصنعه أمي صالحة بنت أسعد، تطل علينا بوجهها الدائري تطالعنا بعينيها الساحرتين، المتسللة من بين خصلات شعرها المنسكب على جبينها، ترجُّ مخيض اللبن بعدما تخففه بقليل من الماء، وتذيب الدهون المتكتلة عليه. تضعه في طبق من خشب مع بعض من موز الزيمة، نغمس الحبات الصغيرة

في السمن، نأكل منها ما يكفينا، ونتمسح بكل ما علق من السمن في أيدينا.

مع شروق الشمس، نربط المحازم، نرتدي المردون، والثياب، ثم نبسط الخناجر داخل المحازم المطرزة بخيوط حريرية ملونة، نحمل معنا أسيافنا الهندية، وننطلق إلى مضمار التدريب في الوادي.

أهل السراة معروفون بصلابتهم، ويسعدهم الدفع بصغارهم إلى ميادين التدريب، وإذا اختير أحدهم، ابتهجوا وأقاموا «العرضة»، يجلبون لها أفضل الشعراء وأنجبهم، يلقون فيها القصائد على السجية، يبدأ الشاعر الأول بالبدع، يرد الشاعر الثاني عليه، في قصيد مترع بالجناس والشقر في كل آخر كلمة في البيت، بعدها ينقع العبيد الزير، وتبدأ العرضة برفع السيوف والخناجر ولكأنهم يطعنون بها السحاب الذي لا يلبث أن يهلّ ما في بطنه من ماء.

ابن عمي جبران الملقب بـ «العير»، كثيرًا ما يتهرب عن التدريبات، انخرط في تجارة كون منها ثروة، ميزته عن أفراد القرية في ملبسه ومأكله، بل وحتى في مشيته مختالا على أقرانه.

ذات تدريب أقامه عمي -الذي هو والده- سأل عنه، لم يجب أحد، راح يتفحص الصف، التفت إلى أبي في انزعاج، وأقسم بالرب العظيم ألا يبدأ التدريب إلا بعد أن نحضره.

انطلقنا نبحث عنه، وحين وجده أخاه مالك، أسرَّ له بأمر أبيه، جاء متسللا من فم الظلام متكئًا على عصاة، سأله عمي بغضب عمّا جرى له، قال إن قدمه زلقت فسقط على وجهه من الركيب على «صفاة»، عمي فطن لكذبته. صاح بصوته الأشج:

- أتعرف يا جبران ما هو عقابك؟

تمتم جبران:

- لا.. يا أبي

قال عمي:

- إن عقوبة المتهربين عن التدريب، هي خلع المحازم والمردونات والأردية. (صاح بأعلى صوته)

- هيَّا أخلعهم يا جبران!

دفعه بيده إلى الخلف، وراح يجرده بيده من ملابسه عدا المئزر، ثم أمره بالصعود إلى قمة جبل الكحلة ليرتشف البرد بصدره العاري. ظل جبران كذلك حتى فجر اليوم التالي.

حين أشرقت الشمس، متسللة من بين الغيوم، صعدت أمه إلى الجبل، نظرت إلى عينيه في غضب، بصقت على وجهه، ثم مدت له المحزم والمردون، قالت:

- أنا لا أخاف عليك من ألم العقاب قدر ما أخاف من أن يصل خبرك إلى نساء القبيلة فيحجمن عن تزويجك من بناتهن.

تغير جبران بعد هذه الحادثة، وصار أكثر جدية في التدريب، وأكثر إخلاصًا للقبيلة، بل أنه في وقت لاحق كان خير سند في المعارك، وحققنا رفقته نصرًا مؤزرًا على كثير من الأعداء الصائلين.

***

٢

في هذا الصباح، بدأ عمي معاوية يسرد لنا قصة من القصص. وكما أسلفت، عُرف الأسرة لا يسمح بتسلل الملل إلى الصدور، ففي مصنع الرجولة، لا يتثاءب الفرسان، ولا يتململون! إنما يستنهضون فوارسهم الكامنة.

قاطعته بأدبٍ جم، وانشدت بصوتي الرخيم:

- قد رابني من دلويَ اضطرابها

نظر إليّ مبتسمًا، ورد على ذات المقام:

- والنأي في بهراء واغترابها

ثم أردف بقوله:

- هذا يا بني، من شعر يعرب بن قحطان، وهو من أبناء النبي نوح عليه السلام!

ثمة شغف للشعر في قلب عمي، فهو يحفظ الكثير من أشعار أجدادنا، وقد اشتهر بأنه يحفظ القصيدة بعد سماعها من مرة واحدة، يتغنى بها بطريقة جميلة تسلب الألباب.

بررت أن إخفاق عمي في سرد الروايات كان الباعث لبراعته في إلقاء الشعر، حد أن أطلق عليه شاعر الجماعة، وهم مجموع القرى المتحالفة مع قريتنا على التواد والسلام والتراحم.

أشار إليّ بأصبعه للوقوف طلب إليّ أن ألقي بعض مما حفظت من قصائد، ابتهجت لثقته فيَّ، خاصة أنني حفظت كلّ شعر أبي، ألقيت بعضه بين يديه، فرِحَ فرحًا عظيمًا ثم ضمني إلى صدره، حتى شعرت بأن نبض قلبه تناغم مع نبضي، مجدني ورفع قدري أمام أقراني.

حينها تأكد لي أنني كنت أتنقص عمي، نظرت إليه من جانبه القاتم. اليوم فقط علمت أنني ظلمته – بل ظلمت نفسي – لقصور معرفتي بالرجال، لقد وجهت كل مشاعري المتفحصة نحو جوانبه القاتمة، تاركًا أجمل ما فيه.

وحين أطلق عليَّ لقب شاعر الفرسان، شعَّت ابتسامتي، أخذ بيدي، أجلسني إلى جانبه على تبة مرتفعة، ألتفت إلى أقراني المتحلقين حولنا، قال:

- أيّها الفرسان، «أقتدوا بأخيكم مالك في حفظ الشعر، وعلى وجه الخصوص الشعر الذي يمجد القبيلة ويتفاخر بفرسانها، بالشعر، يا أبنائي، تنتقل العلوم وتؤرخ الأحداث وتحفز الفرسان».

نظرت إليه مبتسمًا، فبادلني الابتسام، غمز بطرف عينه، في إشارة للسماح لي بالحديث قلت:

- يا عماه، كل الحاضرين هنا ليسو فرسان وحسب، بل كلهم ينظم الشعر، ويحفظ شعر الآباء.

أبتسم ابتسامة عريضة، وقال بصوت خفيت،

- أعرف هذا يا بني، أنتم من السراة وهذه نبته أصيلة في بساتين أرواحكم.

أومأ إليهم واحدًا تلو الآخر، ألقى الجميع ما حفظ من قصائد، ظللنا بين يديه ذلك الصباح في سعادة الشعر حتى غروب الشمس الذي واكب زخات المطر، ملقيًا علينا السلام.

نظر عمي إلى السماء، والغيم الكثيف يهرول نحو قريتنا، تمتم، مسبحًا رب الكون العظيم، مقلب الليل والنهار، قال وهو يمسح وجهه من قطرات المطر:

- هيّا يا أبنائي، عودوا إلى الدور فقد حلّ الظلام، وتفلتت الشياطين، ويبدو أن ليلتنا هذه مطيرة جدًا، فاحتاطوا.

على زخات المطر، تذكرت مقولة أبي أن الشعر في حياتنا أصالة، وحفظه والتغني به ليس غريبًا، فالسواد الأعظم في قبيلتنا تنظمه على السليقة، تغترفه من أعماق القلب الشفيف، وما يظهر علينا من قسوة خارجيه، تطفئه دواخلنا الشفافة كالشلالات الباذخة في جبال السراة.

***

٣

في اليوم التالي، صبّ الإشراق نوره على رؤوس الجبال، وغازلتنا رائحة الكادي المنتشرة في «البلاد»، لمحت عمي مقبلا من جهة البساتين، والتعب عليه باد. لقد تفاقم مرض زوجته، التي هي عمتي الحبيبة حنظلة، فمنذ أن حبلت، وهي من علة إلى علة حتى توفي الجنين في بطنها، أصيبت بإعياء شديد، حملها على كتفه في ليلة مطيرة حتى أصاب المعالج «حمزان الأعور» في تهامة، لم يلبث أن قفل صاعدًا بها إلى السراة حين نصحه المعالج بأن يعيدها إلى دارها لتموت في راحة ودعة، منذئذ وهو يترقب اللحظة التي ستغيب فيها عنه أحب زوجاته وأولهن.

لم أر رجلاً متعلق بامرأته مثل عمي معاوية، كان يتغنى بها على الملأ، لم يترك طرقًا شعريًا إلا وأنشد به، متغزلا فيها، وفي لطافتها، وخفةدمها، وجمال عينيها المتصلة بانف حاد على وجه متشرب بحمرة، حدّ أن غارت منها زوجاته الأخريات، ونساء القرية، بينا الرجال كانوا يغبطونه لجمالها، ووفائها وحسن تدبيرها.

اقترب مني عمي وهو معتمرٌ شاله الأسود، غطى وجهه بطرفه، محاولا أن يخفي صراخ السواد المنتشر في وجهه من أثر الحزن، وقف على مبعدة منا، صاح بصوته الجهوري:

- هيَّا إلى سفح جبل العرنين أيها الطوافون! نلعب لعبة الأمثال.

شعرت بالحزن لحزنه، لكن هيَ الحياة، لا بد أن نتقبلها كما هيَ، نتأمل أن تنطوي أقدارنا البئيسة على خير، حينها نشعر بسعادة، وهذا ما علمناه أبي فهم، «أقتل الألم بالأمل».

نلعب الأمثال حتى تخف حدة الحزن، فمن المعروف أن إجهاد الجسد يروض الحزن، وعمي يحب لعبة الأمثال!

تقسَّمنا إلى فريقين، نصبنا ثلاثة أحجار مفلطحة «أمثال»، بارتفاع ذراع تقريبًا، ركضنا في أنحاء الجبل، يجمع كل لا عب منا ثلاثة أحجار بحجم الكف، يرمي بها الأمثال لإسقاطها، تنتهي الجولة بإسقاط الأمثال الثلاثة، لعبتنا هذه بسيطة، لكنها حماسية جدًا.

أجدني منتصرًا على حظوظ الآخرين بمهارتي في اللعبة، اليوم حققنا انتصارًا عظيمًا في عشر جولات على فريق الكبار بقياده عمي معاوية وأخي جذيمة وابن عمي مالك.

برعت في اللعبة بفضل والديّ اللذين يلعبانها - دائمًا - في البستان، لعبتها معهما منذ طفولة، وأصبحت شغفي، لأنها تتطلب قوة لا أخلو منها، ولأنها معينة على تعليم القنص، أتقنت دقة التصويب.

***

٤

مات أبي فهم واقف كشجرة عظيمة لم تبخل بالأثمار، سيرته الطيبة بين القبائل فتحت لنا الأبواب المغلقة، وكانت ذكرياتنا مع ابتسامته المشعة وفي عينيه نورٌ نستضيء به.

كان أبي متميزًا عن قومه بنظم أجمل الشعر، وإلقاء القصص، كان يبعث في الحكايات حياة، يشبك أصابعه تارة، ويفكهما تارة أخرى، يرفعهما إلى الأعلى، يميل برأسه يمنة ويسره، يغير صوته، حد أنه كان في بعض القصص يقف على قدميه، يتحرك ببطء، يجري بسرعة كما يقتضيه السرد. كان يمسرحها «مونودراميًا» كما في اصطلاحاتكم الأرضية.

حتى في مرضه الذي تسبب في تلف عينيه، وفقده للبصر، لم يستسلم للظلام، بل كان يتعاظم في كل شيء، أصبح أعظم القبيلة رأيًا، وأرفعها شأنًا، وأجدها فراسًا. متمثلاً شبابه، حين كان يجابه الصائلين، ويضرب أعناق المعتدين. ولضخامة جسمه جعل لنفسه مكانًا منخفضًا يجلس فيه حتى لا يعلو على غيره من الجالسين.

ورثت عن أبي الكثير من الخصال، حتى ضخامة جسمه، واستدارة وجهه المتشح بالسمار، وعيناه الأسودتان، وكانت الناس تتحدث عن الشبه الكبير بيننا، حد أن عمي كان يكرر على مسمعي عند كل مجالسة، إنه يشعر أنه مجالس لأخيه فهم، لا شك أن هذا كان يبهجني.

ربما التشابه بيننا دفعني لحب كلمّا أحبه أبي، بدأً من مسكة السيف في «العرضة»، وطريقة الجلوس على الأرض، إلى عشقه شرب القهوة بالبن الشدوي الذي لا زلت أشتم رائحته وأنا في هذه المبعدة، مستدعيًا فيها ذكرياتنا مع أبناء عمومتنا تحت أشجار البن الذي مسقاها الغيم، ومنبتها جبل شدا الأعلى بين مدينتي قلوة والمخواة.

كان كل من نظر إلى وجه أبي ظن أنه فض غليظ القلب، لكن عندما يجالسه ويحادثه، يعي أنه رجل عطوف لطيف، يضعف حين يقتضي الضعف، حتى لو كان أمر مقدر مثل مرض أحد الأطفال، ويحزن عند أي مشكلة تقع في قريتنا أو في القبيلة، لكنه لا يظهر هذه المشاعر لغيرنا، علمت عندما كبرت، أنه كان يصنع لنا منهجًا في كيفية ضبط المشاعر.

أذكر أنه ذات قصة عن والدته، كانت عيناه المغمضتان من المرض، تذرف الدموع بغزارة، وأذكر -أيضًا- أنني كنت ممسكًا بساترة فوق رأس أمي التي كانت تحلب البقرة، سمع أنين أختي الصغيرة، قام على قدميه، تلمس المكان، أرتكز على «المرزح» وهو العامود الذي يتوسط الغرفة ويسند سقفها، خلع عمامته المربوطة على رأسه، مسح بطرفها دمعة كانت مسرعة إلى خده، ثم غطى بها جسدها.

وحين زادت عليها الحمى، راحت ترتعد من شدة البرد، مصدرة صوتًا غريبًا، ونفسًا متسارعًا، وضع أبي يده على جبينها، نظرت إلى عينيه طويلاً، مسحت عليهما، وألقت نظرات مستعجلة علينا، ثم أغمضت عينها، بعدما شهقت شهقة، شعر الجميع بأزيز يختلج صدرها، ولفظت آخر الأنفاس، بكى أبي بكاءً شديدًا، وبكينا على بكاءه، مع أننا تعودنا على قرع الموت لأبوابنا، والتقاطه الأطفال من بيننا.

وارياها الثرى، بعدما غسلتها والدتي وزوجة عمي، صلينا عليها صلاة المسيح الذي علمنا أن نصلي للرب بلا انقطاع وتسبيحه على أحكام عدله. عدنا إلى البستان، جلسنا تحت كروم

العنب، راح أبي يشغلنا ويشغل نفسه عن الحزن بطريقته المثلى. سرد علينا قصة سد مأرب، أحببت القصة التي أتمها بكل تفاصيلها، ولم أنس أي منها حتّى وأنا في غفوة الرمان.

كانت القصة تراودني، ليس لعظمة بناء السد قبل مئة قرن من ميلاد نبينا عيسى -عليه السلام-، لكن لما لها من أثر كبير على هجرة القبائل من سهول تهامة والمناطق الممتدة من مأرب حتى أقصى جبال الحجاز، وانتشارها في أمكنة أخرى، ولما آلت إليه في مساري التاريخي، حيث دفعني الرب العظيم إلى الخروج مغاضبًا من قريتي الصغيرة في دوس زهران لأصبح ملكًا من ملوك الأرض، الأمر الَّذي لم أحلم به، ولم أحسب له حسابًا، إنما جاء مفروضًا عليَّ ومقدورًا من الربّ العظيم.

ثمة روايات وحكايا قصَّها علينا الآباء، كنا نتداولها لأنَّها سلوتنا في الفراغ المريع، وعونا على وحشة الحياة بين الجبال الطاعنة عنان السماء، نجلي بها همومنا التي لا تلبث أن تتراكم من شظف العيش، نتناسى بها الكروب العاصفة بنا بين الحين والحين. كانت كل قصة تنعكس علينا، وتلقي ظلالها فوق سماءانا ... فالحياة بمجملها متصلة، تنسخ نفسها بنفسها في كل زمان ومكان.

وحياتنا في السراة كانت صعبة، بل وأصعب من حياة التهاميين وسكان الصحراء، حياتنا صلدة كجبلي «العرنين» و«كحلة» المحيطين بقريتنا التي خصها الرب العظيم بالذكر في إصحاح التعداد، ٢١، آية ١٣، قال الرب «مِن ثَمَّ ارتحلوا وخيموا من عبر عرنين الذي بالقفر الخارج من تخوم العامري، كون عرنين تخوم منهب بين منهب وبين العامري». ومنهب هو وادي تربة كما قال لنا أبي، وقال إن فيه كلم الرب موسى، وجاء في الآية ١٦، «مِن هُناك بئر هي البئر التي تكلَّم «الله» لموسى أجمع ذا القوم فأعطى لهم ماء».

لا أخفيكم، أن عمي معاوية اعترض على ربط هذا التنزيل الذي بدأت بعض دور العبادة تعبث به، وتفسره كيفما اتفقت مصالحها، لكنّي كنت مضطرًا إلى قبول الرواية، ولو على مضض، لأن مصدرها هو أهم الفرسان في حياتي، مصدرها أبي فهم الدوسي الذي غادر شامخًا من بين أيدينا إلى غفوة الرمان، غادر من قرية الجبور العظيمة، التي في اسمها معانٍ عميقة لحقتْ بي حيثما ارتحلت، فقد «جَبَرْتُ» كسور القبائل المتحاربة، ووحدت أغلبهم في مملكة عظيمة.

لا زلت من مبعدتي، أرى أكثركم يا أهل الأرض تتحدثون عن المملكة العظيمة التي بنيت على جماجم الساسان والرومان، تتدارسونها لتستوعبوا منها الدروس العظيمة والمثل القويمة.

رحلتي انطلقت من قريتي الصغيرة في دوس، قرية وارت أرضها أغلى شخصين إلى قلبي، هبطت فيها من أعظم بطن، بعد تعسر ولادة، ظن الجميع أن والدتي ستموت، حضروا لها الأكفان، وشرعوا في حفر القبر الذي يستغرق حفره ثلاثة أيام، قيل إنها حتمًا ستموت بسبب ضخامة الطفل الذي تأخر في الخروج ولكأنه يرفض الانفصال عن أجمل وصال، جئت بسلام، وعاشت أمي لسنوات في مرض وعناء، ثم أصبحت رضيعًا مزعجًا، متنقلا بين الأثداء، حتى أصبح أغلب أقراني أخواني من الحليب، وحينما انتفضت شابًا، حملت لواء القيادة والفروسية.

غافلني الزمن، سرق مني والدتي التي كانت تعتز بها القبيلة، وتتفاخر بجمالها، وبياض قلبها. كانت تحمل في صدرها روح الطيبين وعلى رأسها ريحان البساتين، كبرت ولم تنزاح عن عيني مسحة الفقد المستعر، ولكأن الدنيا منقلبة على رأسها، كل أقراني عندهم أمهات إلا أنا، لكني منيت نفسي كثيرًا بأن الحياة قصيرة ـ ولم يبق الكثير حتى ألحق بها.

حتمًا كانت في عجلة من أمرها للقاء من أحبت، أبي الذي سبقها بأيام، وقد كانت تحت جناحيه نيف وسبعين عامًا، لم تجادله في موضوع، أو تعارضه في أمر، كانت مرافقة لطيفة له، يانعة كالغراس الذي كان دائمًا معقود في طرف «مسفعها»، أو مركوز في عصابة رأسها. تعجلت الرحيل إلى صاحبها، لتلتحف ذات الثرى الدافئ.

وسدتها القبر في صقيع الخريف، وفي خريف قدري، نفضت يدي من التراب فهلّت تباشير السماء، وتساقطت الأمطار، بعدها اشتدت رياح «الخفة». سقطت أوراق الأشجار، انحنت لها صغار النباتات، وأصفرت كل الورقيات، عدا نباتات «السعور»، و «شقح الكلب». وأنا، قلت.. أنا.. نعم.. أنا، النبتة الوارفة التي تصلبت بعد كل هذا الفقد الأليم. ومن لا يشعر بآلام فقد رحيل والده أو والدته أو كلاهما، فلا بد أن يخلط عقله وقلبه بروث البعران، أو يترك الدنيا لمن هو أشرف منه.

لم يعقن الفقد، بل مدني بمزيد طاقة، حولتها بفضل الرب العظيم إلى صمود دفعني إلى تجاوز كل التحديات، ووقفت شامخًا في وجه الأعداء، ولم أبخل، إذ أنني ضحيت بالكثير من أجل أن أحقق ما اعتقدت أنه واجبي تجاه أمة العرب العالية، وقبيلة الأزد الباهية، والقبائل السامية، ولغتنا العربية الفارهة.

ترعرعت في قسوة الأحجار، وفي منبت الأشجار، فأصبحت قويًا في العزيمة، رقيقًا في القلب، من مائي القاسي، سقيت الأعداء، وبيدي الحجرية، لطمت وجيههم. مقيمًا قائمة العرب الأولى بعدما هزمت كل من واجهها، رغم النكسات والمؤامرات التي كانت تحاك من بعض القبائل العربية المحاسدة لنا، والمحاربة لعزتنا، لكن رضا الرب العظيم أسبق، وتمهيده لمهد الرسالات أعظم.

لكن أجدادي الأولين عاشوا في قسوة أشد، وتنقل مرير بين الجبال العاتية، كانت رحلاتهم طويلة، وممتدة. قال لي أبي ذات حكاية، أن آبائنا بحثوا عن عيش أرغد، اتخذوا مساكنا على مقربة من سد مأرب، ممتهنين الزراعة، والرعي والتجارة، حتى جاء أمر الملك عمر بن عامر الأزدي بالرحيل، في كهانة من زوجته الكاهنة طريفة بنت الخير، التي تزوجها بعد وفاة أخيه، لما عرف عن علمها العظيم ونبوءاتها الصادقة، وطريفة هي التي حنكت «سطيحا» أكبر كهنة البلاط، عرف عن سطيح الذي كان شق إنسان، نظرته الثاقبة، وقدرته على الكهانة.

قال الملك عمرو لأخيه عمرًا وهو في نزاع الموت، يا أخي:

- إني عشت أربعمائة وخمسين سنة، جلّها على كرسي الملك، فلم يخب لطريفة بنت الخير أي كهانة، فاجعلها في حكمك.

لم يمض طويل وقت من زواجهما حتى جاءت إليه وهو مستأسد على عرشه العظيم، محاطًا بوزرائه وندمائه، أشارت إليه بالخروج، ألتفت الوزراء والندماء إليها، نظروا إلى وجهها وقد بدا محمرًا وعليه سيماء الخوف والارتباك. همست في إذن الملك، ثم هرعا إلى داخل الدار حتى ابتلعهما الظلام.

قالت بارتباك وبصوت متقطع أيها الملك:

- إني رأيت ثلاث مناجد من اليرابيع التي لا عيون لها، وضعن أَيْدِيهنَّ على عيونهن، وَلَّين سريعًا، وهن يشخبن بأبوالهن.

وأردفت وهي تمسح دمعات فرت من عينيها:

- إنها مرت بخليج يسقي حديقة، وقد وثبت منه سلحفاة، فوقعت على التراب على ظهرها، وهي تريد الانقلاب ولا تقدر، وكلما اضطربت حثت التراب على رأسها وبطنها، ثم

إني رأيت شجر الحديقة يضطرب ويتكفأ في ساعة لا ريح فيه. أيها الملك: إننا مقبلون على سني شداد، فيها يتفرق الأحباب، والخيل والركاب، وفيها تنهار الجنان، ويصطخب الماء، أيّ اصطخاب!

سأل الملك متى يا طريفة؟

صفقت بكفيها في ارتعاد، وراحت تنظر إلى السماء، وكأنها تلتقط الكلمات من هطول حارق قالت:

- أيها الملك، إني أراها قريبًا، وأظنها في يومنا هذا، وَلَرُبَّمَا لا نبات ليلتنا هذه إلا ونحن هالكون، فأرسل من فورك إلى القوم أن يحذروا، فالخطب كبير، خطير يقتضي الاستعداد والتدبير، فما هو قادم ليس مرضًا يطفئه العلاج ولا الإكسير.

حينها، كانت ملكة «الخلد» المعمرة، قد ولدت مئات من الفئران العمياء، شرعت أمامها في حفر الأخلاد في جدران السّد، والصخور المتاخمة، تأكل جذوع الأشجار، حتّى بدا على الزرع ضعفٌ وانكسار، لم تلبث أن قلبت الأحجار برجليها، وكانت كما قال لنا الآباء، حجارة لا يطيق حملها إلا خمسين رجلًا صلدًا. وهذا، يا أبنائي، ليس على الرب بعزيز، هيَ عقوبته التي وعد بها الضالين، المحاربين لرسله، والمقاتلين أتباعه.

انتبه القوم إلى الفئران تجوب المكان، راحوا يربطون على كل حجرٍ في السد هِرًّا ضخمًا، برّحوا له إلى الأخلاد حتى تهرب الفئران العمياء، لكن الرب العظيم خذلهم، وأفسد مخططهم، لأمر كان قد قضى به منذ أن حادوه وحاربوا رسله.

اهتزت الجبال التي كانت راسيات، وتراخت الأشجار الشامخات، وبدأ خرير الماء الأحمر يسيل رُوَيْدًا رُوَيْدًا حتى بلغ المسيل، فلم يلبث أن انهدم السد، وانتفض الماء في كل الأنحاء، يصب غضب الرب صبًا. تبدلت الجنان التي تباهى كبراؤهم بها، وتحدوا الرب أن ينسفها، وجاروا على ذوي القلة والفقر. اجتثها السيل حتى صارت الجنان صحاري قفراء، ولم يبق لهم من الثمر، إلا الخمط منه، وبعضٌ من الأثل والسدر.

ولم يك لهم من بد غير العودة، والانتقال من حيث وجب الرحيل، عن أرض نزل بها غضب الرب العظيم، وصارت كالصريم، لا ماء فيها ولا شجر، تَبَبَّسَتْ بالحجارة المتناثرة في كل الأنحاء، وأصبحت مرتعًا للدواب والهوام المؤذية لكل حياة. لم يعد للحياة فيها مكان.

***

وقبلما تحط بهم الركاب في وادي بكة، نزلوا على مقربة من ساحل «جدة» المنسوبة إلى جدتنا «حواء»، التي نزلها بعض القضاعين، عبدوا فيها قبرها. ونزل بها أناس آخرون، عبدوا سواع بن شيث بن آدم. وعلى مبعدة ثلاث شدات، كان جدنا آدم عليه السلام، المدفون في جبل قبيس في «بكة»، أو «مكورابا» كما أسماها بطليموس، بعد أن مضى من عمره تسعمئة وخمسين سنة منتصبًا على الأرض. وكانت التبة التي هي موضع الكعبة خيمة آدم عليه السلام، استقر فيها لسنين عديدة، وعلى مقربة من خيمته «عرفات» التي عرف فيها تلك اللحمة الغريبة التي اسمها «زوجة»، وخرجت من ضلعه في الجنة، أكل فيها من شجرة تسمى «شجرة معرفة الخير والشر»، حين أرخت حواء أذنها إلى إبليس الذي دخل في فم الحيَّة، أوهمها بأن الشجرة هي مفتاح المعرفة العليا، أكلت منها ودعت آدم عليه السلام إليها، فجرى عليهما أمر الرب.

وحين قص علينا والدي تفاصيل قصة انهيار سد مأرب، كرر علينا ما كان يسبق به كل قصة، «إن في القصص عبر فاستقوها حتى لا تقعوا، لأن التاريخ ينسخ نفسه كل مائة عام»، وقال يا أبنائي:

- إنَّ في كل قصة عظات، يحكها لنا الآباء للتسلية وحسب، وإنما لاستقاء العبر العظيمة منها، والاستزادة المعرفية من

أحداثها. ولم يرسل الرب رسله بشرائعه إلى عباده عبثًا، ولا تسلية لهم، إنّما أرسلهم رحمة لهم، تدعوهم إلى وحدانيته، حتى لا يستغل البشر من هم أدنى منهم لعبادتهم، وتمجيدهم حد التأليه! وعد ذلك شركًا لا يغفره أبدًا. وتكذيب الرسل أو مقاتلتهم يجلب غضبة الربّ، وغضبه شديد.

قال متحمسًا لذلك يا أبنائي...

- مجالستكم مع كل إشراقة، مهمة لنا ولكم وللإنسانية جمعاء، نحكي لكم فيها قصص الأولين والآخرين، وأنتم بدوركم تنقلونها بحذافيرها إلى أبنائكم وأحفادكم، فلا يضيع من خبر العرب شيئا، فاستمروا في هذه العادة الطيبة، ولا تتركوها.

وضرب لنا مثلا بقوم عاد الذين انقرضوا بعدما نزل بهم العذاب. تركوا التوحيد الذي جاء به هود عليه السلام، وعبدوا الأصنام الثلاثة، صداء، صمود، والهباء.

ولم يعتبروا من طوفان نوح -عليه السلام- الذي وقع في قومه، وهو المبعوث لتخليص الإنسانية من الوثنية.

ثم قال، بحزم الأب المؤدب..

- أعلموا يا أبنائي: إن الرواة حرفوا ودلسوا في قصة عاد وثمود، كما حرفوا قصة نوح عليه السلام.

لقد جاء ذكر نوح بن لامك عليه السلام عند اليهود، باسمه الذي نعرفه به، بينما عند البابليين جاء في ملحمة «جلجامش» باسم آخر هو «أتنابشتم» *Utnapishtim* وجاء عند الهندوس باسم «مانو» وعند الصينيين «فوهي» وعند اليونانيين «بروميثيوس» *Prometheus*. وعند قبائل الأزتك بالمكسيك «تابي»، وسماه الصابئة المندائيين في كتابهم «الكنز العظيم» باسم «نو»، ومازالوا يترحمون على القاضين في الطوفان في عيد «أبو الهريس»، وهو الغفران للثلاثمائة وخمسة وستين ترميدي قضوا في الطوفان، فاستغفر لهم «نو»، جمع لهم سبعة حبوب، تمثل أيام الأسبوع، هرسها لهم، فسمي بعيد أبو الهريس. وجاء أيضًا في ثقافات سبقت وأخرى ولحقت، وفي جلها، أُتهم نوح عليه السلام بالجنون، كما هو الحال مع أكثر الأنبياء والرسل، فأرسل الرب على قومه الطوفان.

وأردف قائلاً:

- ولا تصح عندنا، هرطقات المؤرخين أو مزورو كتبنا المقدسة، أولئك القائلون في سفر التكوين بالتوزيع الطبقي، بزعم أن رجال الدين والقديسين ينحدرون من سلالة سام والفرسان من سلالة يافث، بينما الفقراء ينحدرون من سلالة حام؛ كيف ذلك وهم جميعهم أبناء نوح عليه السلام؟! بل أن بعضهم زاد إمعانًا في التزوير، وجاءوا بما أسموه، «لعنة حام»، وهم الخلق الأسود.

كل هذا يا أبنائي هراء وتزوير في كتبنا المقدسة، قامت به أيدي خبيثة، استغلت شرائعنا للتكسب والترفع على الناس، واستعباد الخلق ونشر الطبقية فيهم.

ثم أشار أبي بيده إلى الأرض، قال:

- على مقربة من هنا، خرج قوم عاد، انتشروا في يثرب وتيماء وحضرموت. قومٌ أُولو قوةٍ وبأسٍ شديدٍ، احتقروا نبيهم هود – عليه السلام–، حاربوه ووصفوه بالسفه والطيش والجنون. لأنه جاء بالتوحيد.

أغتر قوم عاد بقوتهم، حاربوا هود – عليه السلام–، منع الرب عنهم الغيث لثلاثِ سنينٍ، جفّت فيها الضروع، وانحسر الماء عن كل الأودية والآبار، ثم أرسل عليهم ريحًا صرصرا عاتية، قضت على ما تبقى من أشجار وآبار، ودمرتهم تدميرًا، إلا النبي هود –عليه السلام– ومن تبعه مُدّ في أعمارهم، رحلوا إلى مكة، ونزلوا في طريقهم في بلدة «عسفان»، أحرموا وذهبوا ملبيين إلى الحج، ظلّ هود –عليه السلام– في مكة لسنين، وتُوفي عن عمر ناهز الستين والأربعمئة، ودفن قبالة بئر زمزم.

توقف قليلاً عن الحديث، أخذ الركوة، شرب قليلا من الماء الذي جلبته للتو من بئر رهى ساسا في قريتنا، بعد أن جفف ما تبقى على شفتيه من رطوبة الماء.

صاح منفعلا:

- حاول السفهاء اعتبارها من الخرافات المنقولة إلينا، لأنَّها لم تذكر في كتب اليونان، ومنذ متى كتب اليونان تؤرخ لنا، أقوالهم كثيرًا صادمت الحقيقة، نحن نؤمن بما جاء عن آبائنا كابر عن كابر، ثم إن قصة عاد مذكورة عند كاسترابون وبطليموس، باسم (عاد إرم) *Adramtic*، وكذلك الأمر في

ثمود في القرن الثامن قبل الميلاد في أعالي الحجاز. وقد عايش عصرهم أجدادنا ونقلوها لنا، ونحن معشر العرب لا نعرف الكذب والغش والتدليس، كما أننا أكثر تحقيقًا للروايات، وأكثر حرصًا في نقلها.

***

٥

آه...

بعدما قضت رحلتي مع صعوبة حياة الآباء، وجدتني متذكرًا طفولتي الألمعية، شاركت في سباق لبلوغ قمة جبل العرنين، لكنني أُصبت في قدمي بجروح غليظة، لم أستطع إكمال السباق، فوجدتني من المتأخرين.

حينها، طلب آبائي مني العمل مع العبيد لحفر البئر في «رهي ساسا»، استغرقنا ثلاثة أشهر من العمل الدؤوب، حفرنا مسافة عشر قامات نبع الماء الزلال، في الحفر، عملنا على كسر الصفوات بالمطارق الصغيرة، فتتنا الأرض الصلدة، وعبَّدنا الطريق للمارين إلى البئر من الأنس والحيوان.

العمل الجاد والقفز على الأنجاد علماني قيادة الأسرة الصغيرة. فبعد وفاة والديَّ، تركت أمي الظهر المؤلم، ورحلت إلى البطن الناعم، رحلت مستعجلة لتلحق بأبي.

لم ألبث حتى توفى أخي الأكبر، فأصبحت أنا المسؤول عن تربية ثلاثة صبية، وبنت. كان أخي الأصغر عمرو خير سند لي مع إنه كان كثير الترحال إلى تهامة، للمتاجرة في البز الهندي الذي يجلبه من ساحل جدة.

تغيرت مهماتي، فقد كنت في الصف الخلفي لعشرات السنين، والآن وجدتني في موقع القيادة. وجدت الأمر صعبًا للغاية، وإن استهان به البعض، خاصة في زماننا القاسي، حين كانت القيادة أن تقف أمام الجميع ومعهم في آن، وألا تكن «مرياعًا» مسلوب الإرادة، مغشوش بقدرات ليست قدراتك، تمشي خلف كلبٍ، أو حمار دون وعي منك.

لذلك كان آباؤنا، ينشئوننا للقيادة، يتركون لنا المسؤولية، بالتدرج، حتى نتعود عليها. كذلك فعلت حينما أشتد عودي ونبت الشعر في وجهي، تحملت الثقال عن الأطفال، ورحت أنيط إليهم الأمور الأخف والأسهل ثم الأثقل والأصعب، تدريجيًا حتى تنمو لديهم القدرة على تحمل المسؤولية.

في الصباح الباكر، كنت أسبق الشمس في الطلوع، أتجه غربًا حيث الأرض الحمضية، التي تتهادى فيهِ السنابل القمحية، أتابع

سقائها، وأحرص على انتصاب «خيال المآتة» حتى ترتعب الطيور، أضع بعض القمح في «السِّفل»، وهو مكان نخزن فيه القمح إضافة إلى ما نتركه في السنابل لحين حاجة.

أهرول إلى الدار قبل أن تحط أشعة الشمس على البداية، فيصحو الأطفال، أصنع خبزة الملة، تلك الخبزة الشهيرة التي لا تنفك سفرة طعامنا منها، لما فيها من فوائد جمة، خبزة صلبة من خارجها كما حجر الصَّفوان وهشة من داخلها كالعهن المنفوش.

ثم ألتقط البيض من تحت «الدَّيَّكَة»، أخلطه مع الدقيق المتلزج، أتركه ليختمر طبيعيًّا، أشعل النار تحت «الصلاة» وحوله (حجر خاص تطبخ عليه الخبزة)، أضع عليه العجينة بالشكل الذي أريد، أتركها حتى تقسو من الخارج. وإذا نضجت، جمعت الأسرة الصغيرة، قسمت الخبزة عليهم، تعلوني الفرحة حينما أرى الأطفال يغمسونها في اللبن أو في السمن والعسل، لتستقيم بها أصلابهم، وتتنشط فيهم الدورة الدموية. خبزة الملة هيَ ذات الخبزة اللذيذة التي قال الرب لموسى -عليه السلام- «الآن أمطر لكم خبزًا من السماء». وقال في متى ٦:١١، «خبزنا كفافنا أعطنا اليوم».

بعد أن ينشط الأطفال، أسير معهم إلى البساتين، أعلمهم الحراثة، و «الدياسة» تلك العملية المرهقة التي نفصل فيها الشعير والقمح عن سيقانها وسنابلها. نجفف المحصول في الشمس، نضعه في «القوع» وهو إناء ضخم يتوسطه مهراس من الخشب القوي.

وحين تدور الثيران المربوط فيها حبل ممتد إلى القوع، تدور اليد، ونأخذ المحصول. ثم أبدأ في تعليم الأطفال والشباب أدق التفاصيل، وأهم المهارات، حتى يتمكنوا من العيش في استقلالية تامة، لا يضطر أي أحد منهم إلى طلب المعونة من أحد.

***

٦

اختار جدنا عدثان بقعة في منطقة دوس، قبالة جبل العرنين وجبل الكحلة، سماها «الجبور»، تدربت فيها مع أقراني ورفقة أبناء عمومتي على ركوب الخيول العربية الأصيلة، خيل من سلالة «زاد الركب»، الذي أهداه النبي سليمان بن داؤود – عليه السلام- إلى جدنا حين وفد الأزد إليه سألوه الخيل فأهداه لهم، فلم يفلت منهم قنص.

في هذه القرية الحالمة، ابتلت عروقي، ولعبت فوق جبالها وأوديتها حتى أصبحت من الفرسان الذين يعدون على يد الإنسان، لم أترك مكانًا إلا ولجته، ولا علمًا إلا تعلمته، ولمّا بلغت سن الحلم، تزوجت كما هيَ عادة أهل قريتي، رُزِقت بابني الأكبر «جذيمة».

ثم أكرمني الرب العظيم بعشرة من الأبناء من زوجات كن لي طوال عمري الذي امتد أكثر من مئة وعشرين سنة كادت أن تطول

لولا قدر الرب الذي أتاني من أحب الناس إلي، لكنني عشتها مهنئًا، مرفوع الرأس مع الأزديين والقبائل العربية الأخرى.

أسميت أبنائي، جذيمة، جماز، هناءة، معن، شبابه، الحارث، عمرو، ثعلبة، نوى، عوف، وسليمة. وكان لي من الإناث الذين كنا نسميهم «عيون الصدور»، لأنهم مجلبة خير للدور، ومن سوء طالعي لم أحظ إلا باثنتين أسميتهنّ، رقاش، ولميس. وأمَّا أخي عمرو فرزقه الرب العظيم بسبعة أبناء، هميم، سابخ، طريف، الحزم، وجلة، فهم، وسليمة.

اهتممت وأخي عمرو فيهم مذ نعومة أظفارهم، مثل ما فعل آباءنا بنا، دربناهم على الفروسية حتى أصبحوا فرسانًا لا يشق لهم غبار، فكانوا خير سند وعزوة لي ولأخي عمرو الذي خلفني في الملك العظيم الذي بنيته على جماجم أعداء العرب، أولئك الأعداء الصائلين على أرض خصَّها الرب لنا، وجعلها مسكننا، لم يدَعَوا زرعًا إلا نهبوه، ولا رجلاً إلا استعبدوه، ولا أنثى إلا سباؤها، حينها قررت أن أحمل أرثي العظيم، بأمر الرب الكريم، وأحفر في ذاكرة التأريخ أن العرب أمة تعلو ولا يعلى عليها.

كُنتُ في شبابي كغيري من الفتيان أتنقل مِن قريتي إلى باقي قرى دوس في زهران، وفي القرى المُتاخمة التي نزل فيها أبناء عمومتنا وخؤولتنا، وكان من أقربهم لنا أحفاد جدنا عمر بن عبد الله، المُلقَّب بغامد، لأنَّه تغمد وستر أمرًا كان بينه وبين عشيرته، فسماه القيل الحضوري غامد.

توسعت غامد في مساكنتنا، وانتشرت معنا في الأودية والجبال المتلاصقة. وكنا خير عون لبعضنا البعض، نوالي من يوالينا، ونُعادي مَن يعادينا، فالدم المهراق فيهم يكون فينا كما هم. هابتنا القبائل المعادية، واللصوص البادية، عشنا في سلام لم تعشه كثيرٌ مِن القبائل المنتشرة في جزيرة العرب والشام، لذلك أرتبط أسم بلادنا كلها ببلاد غامد وزهران، لا فكاك بينهما.

حرص والدانا فهم ومعاوية في ريعان شبابنا كل الحرص على تعليمنا الأصول العربية، بما اشتملت عليه من أخلاق وكرم، ونجدة للملهوف، وتواصل وتآزر مع أبناء عم وخال، ونسل من العرب ومواليهم. فالحياة ليست في الجسوم البالية التي ينتهشها الدود، إنما في السيرة الحسنة التي يتركها الآدمي خلفه، وتمتد إلى أبنائه وأحفاده وقبيلته وعروبته.

حينها كنا آلافًا مؤلفة، نتاجر فيما بيننا، نسقي الرعاء، ونستضيف الحجاج القادمين من حواضر اليمن وبواديها، ومن الشام وأوديتها وموانئها، ومن العراق وما حواليه من ممالك، ومن مملكة حضرموت، ومملكة قتبان، ومملكة معين، وحمير. وكذلك فزعنا لأبناء عمومتنا من الأحباش وهم من حبشة السامية الذين انتقلوا إلى ما بعد البحر واستقروا فيما يعرف بأفريقيا، وقد سماهم الإغريق بالأثيوبيين مِن أيثيم بمعنى محترق وأُبوس بمعنى وجه، أي الوجه المحترق، وذلك لسمرة أكثر من سمرة أهلنا علت على بشرتهم وزادتهم جمالًا على جمالهم.

ثمة قبائل أخرى التحقت بنا، ساكنتنا جبال السراة وأوديتها العظيمة، وآبارها المشهودة بالماء الوفير، كان بعضها معادٍ لنا في أزمنة مضت، لكننا احتضناها، تزاوجنا منهم، وتزاوجوا منا، حتى كثرت بيننا المصاهرة والرحم؛ فعز علينا وعليهم قطعها بعداوة أو صراع على حفنة ماء، أو ظل شجر، فأصبحت الحياة لنا أرجى وأرغب، وبقي بعضهم فينا، ومعنا إلى حين، والبعض الآخر انتقل إلى قرى وجبال مجاورة، وعلى أطراف أودية غائرة في بطون مكة وثقيف ويثرب وفيها نور مشرق وسكينة هائلة، قامت بعض

القبائل على زراعتها، بالتين والرمان والزيتون، فازدانت المضارب والديار بالخضرة اليانعة في كل الفصول.

استقر بنا الحال لردح من الزمان، فلا حرب تؤذينا، أو وغى يغوينا. كظمنا غيظنا ما استطعنا، وسقنا هدايانا التي تبرد لها النفوس حين خصومة. فكان الابن لأبيه، والأخ لأخيه، والجار لجاره.

***

٧

غمرني الحزن – بدايةً – حينما رأيت بياضًا مستشرٍ على جلد ابني جذيمة، بياض مرض يهتك الجلد، اسمه «البرص»؛ لكن إعظاما له وإجلالًا، أطلقت العرب عليه جذيمة الأبرش، وجذيمة الوضاح، سرت عليه هذه الكنية، وعرف بها في كل الأزمنة وكل البقاع التي زارها، أو حتى لم يزرها، ولكن سبقت إليها سمعته وتقديسه للعرب والعروبة.

لم أعِ ما كان له في الغيب، حتى صارت خلقة فيه، تيمن بها الأهل والأصدقاء، وتمناها كل أحد في ولده، تشبهًا بالفارس العظيم، ثم عظّموا المرض حد أنهم زعموا أنها تصيب الرجل الكريم، ذا الطبع السامق، والفعل الجامع. وبحق الربّ العظيم، فقد كان جذيمة الأبرش كل ذلك. استفزعت به في المعارك التي فرضت علينا، إما عداوةً لنا وحسدًا، أو إننا دُفعنا إليها للحفاظ على شرف العروبة التي تعبّث في أطرافها أبناء الكاهن الزرادشتي، ملوك الساسان، وعساكر تراجان في الرومان، ومَن جاؤوا من أقاصي

الدنيا من بلهاء العرب وحثالتها، فتعالوا على العرب الأصلاء في أراضيهم، ونهبوا زروعهم، حينها لم يك من بد أن نناصر أخواننا العرب وننتصر لهم بعظمة الرب العظيم.

***

٨

وقعت واقعة، لم نحسب لها حسابًا، ولا عرفنا لها في العرب رُغّابا، وكانت فتنة بين الأهل والأصحاب، لكنّها عادت على الأمة بالخير العميم، فما يكرهه العبد من فتن لا بد أنها منطوية على خير عظيم.

ففي صباح مشرق؛ ككل صباحات قريتنا الشامخة على سفوح جبلي الكهلة والعرنين، تنفست الوديان الشيح والكادي، وجاب الرعيان النجود والتخوم قبالة الجبال، وأسفل الوديان، يستقون ويسقون، يتغنون ببهاء الأرض ويتراقصون على موسقة النسيم الهائل، وزخات المطر الرقراق؛ انقض كلبٌّ عقور، على راعٍ رعى في «حمى» القرية، هاب الراعي من عضةِ الكلب، وخشيَ على حلاله وما أتومن عليه من غدرة حيوان لا عقل له، رماه بالنبل، نبح الكلب نباح الموت، ورفس برجليه ويديه حتى سكن. جاء صاحب الكلب، ألقى نظرة مغرور، درج الشيطان بينهما، استشاطا غضبًا على بعضهما، تعاركا حتى سالت الدماء على الصفيان،

خرجت روح الراعي بعدما دوى بصرخة الموت، أتقتلني في كلب يا ابن العم؟

مات الراعي في ريعان الشباب، تاركًا خلفه زوجة ثكلى، وأطفال رضع، وأجمع أهل القرية على دفنه، وافقتهم كرامة لجسده الطاهر، لكني وبعض من أبنائي طلبنا أن يتم دفنه بعدما نجمع حقه من دية وعطاء، أو أن نطبق شريعتنا في القاتل، العين بالعين، والنفس بالنفس.

ارتفعت الأصوات المستنكرة، وخفتت الحكمة، حاولت مرارًا، لكن بعض القوم تمنع، وحمل آخرون علينا، بزعم ألا يقتل الكريم في راعي من العامة، حينها آثرت ألا أعيش بين ظهراني من لا يقبل تطبيق شريعة الرب التي جاءات في الإنجيل المنزل على نبينا عيسى عليه السلام، سأبتعد عن قريتي التي أحب حتى لا أرى فيها مدفن الحق.

انتقلت من فوري إلى دار زوجته المكلومة، أركبتها ورضيعها فرسي، واصطحبت جمع من قريتي وأخوتي وأبنائي، فارقت القرية حزينًا، غير مودع!

تمتمت، ربّما الزمن سيمحي ألم الآثام، المهم، ألّا تمتد نار الثارات بيننا، وألّا ترتفع على أهلنا السيوف، فالثأر لا طائل من وراءه، وإن بدأ مسلسله لن ينته حتى يقضي على آخرنا.

حملنا معنا من الزاد ما يكفي الطريق البعيد، اتجهنا إلى حيث أراد لنا الربّ.

غادرنا ديارنا ولم نكن لها كارهين، بل لنا فيها ولهَا وَلَهًا وحنين، حتى أن إبلنا حنّت إلى مراعيها، وطرقاتها والفجاج، راحت تلتفت إلى السراة، حين بدت خلفنا كالسراب، ولم ألبث أن قلت فيها مما أفاء الرب به عليّ من شعرٍ شعّ في الآفاق، واستطارت به العرب.

قلت والحنين يعصر قلبي:

تحن إلى أوطانها إبل مالكٍ
ومن دونها عرض الفلا والدكاك
وفي كل أرض للفتى متقلب
ولست بدار الذل طوعًا برامك
ستغنيك عن أرض الحجاز مشارب
رحاب النواحي واضحات المسالك

عرجنا من الصحراء إلى وادي برهوت في بلاد المهرة، لما فيها من ماء وفير، وكلاء مخضرٌ كثير، وفيها بئر برهوت، باسم واديها العظيم، وفدنا إلى البئر حتّى يسقي الرعاء، صاح نفر من مبعدة:

- لا تقربوا البئر - أيها الرعيان!

فزع الجميع، ورفعت يدي من بين الجموع، سألت:

- ما الأمر، يا أخانا؟!

رد بثقة:

- هذه بئر مسمومة.

انتظرنا قبالة البئر، لوقت قصير، حتى جاء رجل من طرف القرية يسعى باتجاهنا، سألته

- ما أمر هذه البئر يا رجل ؟

- أن فيها أقوال، أولهما إنَّها بئر عظيمة، ماؤها عذب كماء زمزم المدفونة في مكة التي أخرجها الربّ من بين قدمي جدنا إسماعيل عليه السلام، ولم يعرف مَدفنها حتّى الآن. أما

القول الثاني، إنها خسف مرير، عرف بـ «خسف فوجيت»، وهيَ مسكن للدواب، يحرسها جن، أما رائحتها فمنتنة، لأن عظيمًا من الكفار مدفون فيها، وأما القول الأخير، أنها من حفرها جن من خدام ملك ظالم من ملوك حمير، دفن فيها الكنوز، وطلب إليهم حراستها.

أقترب مني الأعرابي، وهمس:

- برهوت باللُّغة الحميرية تعني أرض الجن.

لم أهتم للخزعبلات التي ذكر، لأننا مؤمنون بالرب العظيم، رب موسى وهارون، وعيسى الأمين، ولم تكن تهمنا ذات البئر، ففي الوادي آبار وأسقية كثيرة، نزلنا بها مع رهطٍ تجمعوا لنا، ثم ساروا معنا حين أبلغهم القوم بقصة خروجنا في كرامةٍ وعفةِ نفس.

ظللنا في وادي برهوت أيامًا، أرحنا فيه، وقضينا حوائج أهل الوادي، ونهلنا من خير الأرض العميم، ما يخفف به وطأة الترحال الطويل.

لكن الأحوال لم تمض كما يرام، ولا ابتغينا أو أراد أهل البلاد، بدى على الممالك في حضرموت وما حولها، قلة الزاد، وتوقف

القوافل، بسبب حروب الساسان والرومان التي قطعت الطرق، ونهبت الأموال، وقتلت الرجال، في أقصى شمال جزيرة العرب، خفنا مداهمة الجوع، فآثرنا الرحيل والرجوع، مصطحبين معنا خلق كثير من أهل الوادي وأهل حضرموت، متجهين إلى بلاد البحرين، لما عرف عن أهلها من كرم، ومحبة.

سرنا لأيام في عباب الصحراء الكالحة حتى بلغت الركاب أطراف بلاد البحرين، طلبنا من شيوخها أن يفسحوا لنا فيها مكان، فوجدنا منهم ضيافة وترحيب، وكرم عجيب، تعاضدنا معهم وتآزرنا، وكان جلهم من العرب المؤمنين، نزلوا فيها منذ مئات السنين، منهم الأزد الأبقور في زمن عيسى -عليه السلام-، وملَكَهم حينها، عمد بن جر الأزدي، ولحق بهم قبائل أخرى منهم بعض من قبيلة قضاعة، ومن بني عبد القيس، ومن قبيلة تميم، وغيرهم. انتقلوا إليها بغية الرزق الحلال، وما امتازت به من ثمار النخيل الممتدة، والعيون الحارة المنتشرة.

لم يمض وقت حتى اتفقت الأرواح، وأختلطت الأنساب، واتفقنا مع شيخيها، عمرو بن زهير، وعمرو بن فهر على «التنوخ»، أي «المقام» على كلمةٍ سواء، نعين بعضنا، ونشد أزرنا، فيهابنا أعدائنا الذين هم أعداء عروبتنا، واستحقاقنا للحياة الكريمة.

استقررنا في التنوخ، ولحق بنا جذيمة وبعض من قومي في دوس زهران، حينها ارتأيت أن أجعل بيني وبين الشيخ عمرو بن زهير الذي أحبنا وأحببناه، نسبًا ممتدا، ووصالا مشتدا، فخطبت ابنته «لميس» لابني جذيمة.

وقبل أن يبدأ الشعراء في إلقاء قصائدهم، قام الشيخ عمرو بن زهير متكئًا على عصاه، قال:

- يا قوم، نحن اليوم في محفلين، ليس مجرد زواج أبنائنا الفارس جذيمة وابنتي لميس، إنما هو محفل عظيم، يهمنا جميًعا، فأنتم قد عرفتم مالك بن فهم، وعرفتم صبره وجلده، ومعرفته بعلوم الرجال، ودرايته بالحروب، وهو شاب قوي البنية، بهي الطلعة، وأنتم نصبتموني شيخًا عليكم حين كنا قلة، وقد أصبحنا آلافًا مؤلفة، وكنت في شبابي، والآن شيخًا كبيرًا، أنهكه المرض، والعجز، فهلا بايعتم أخانا مالك بن فهم ملكًا على التنوخ!

على الفور، هبّ الناس، وعلا صوتهم بتسبيح الرب العظيم، ثم توافدوا إلى مجلسي، واحد تلو الآخر مباركين ومهنئين، ثم تقدم الشاعر «فهر»، ذو الصوت العريض، برغم بنيته الصغيرة،

ووجهه النحيل، ألقى قصيدة طويلة، تخللها نقع الزير وعرضات حجازية.

بعد أيام من تنصيبي، أنشأت مجلسًا من حكماء قبائل البحرين، وأقمنا دارً للحرب بغية صد الأعداء المتربصين، وأنشأت دارًا للفقراء والمعوزين، أعلنت أشاعة الماء والكلأ، منعًا للحكر، ودفعًا للضرر، فرح الناس بالتنظيمات الجديدة، ساد الأمن والأمان في كافة قرى البحرين وتوابعها.

لكن الساسان أشعلوا فتنة جديدة كعادتهم، فاحتلوا بعضٌ من أراضي مزون العربية، جعلوها في ملكهم، قاتلوا أهلها، أخرجوهم من أراضيهم وبساتينهم، واستعبدوا الرجال، وسَبوْا النساء، وقتلوا الأطفال حتى لا تقوم لأهل مزون قائمة أخرى.

عدت من فوري إلى دار الحرب، بعثت إلى جذيمة أن أحضر في صحبتك شيوخ القبائل، فالأمر جلل، ولا بد من حسم موقف قبائلي موحد قبلما تغفو العيون، أو تبرد روح الحمية. طلبت إليهم الموافقة على إعداد العدة، وتجهيز الجيوش لمناصرة أهلنا في مزون، وبينت لهم أن: ضعف الأمة يبدأ من عدم مناصرة بعضها البعض.

وافق الجميع دون تردد، فبعثت بريدًا باسم الأمة العربية إلى المرزبان عامل الملك بهمن في مزون، ضمنته موقفنا المستنكر من غزوه لبلاد العرب، وذيلت الرسالة «بوعد ووعيد»، وعد السلامة أن تراجع وأن تعد كل شيء في موضعه، ووعيد شديد، بأننا أهل نخوة ونصرة وحرب، وأن أهل مزون منا ونحن منهم، والاعتداء عليهم بمثابة الاعتداء علينا، وأننا قد أعددنا العدة لمحاربته وإخراجه وجيشه بالسيف.

عاد البريد بلا رد، حينها جمعت أكثر من ستة آلاف فارس، واتجهت بهم إلى الجنوب، أخذنا الطرق الصعبة والملتوية حتى لا يباغتوننا أو يترصدون لنا في الطريق المعروفة، دخلنا بلاد الشحر التي اشتهرت بزراعة اللبان، وهي بلاد تعددت لها الأسماء، والأوصاف، ومنها بلاد الأحقاف وريدان، وسميت ظفارًا أيضًا، نسبة إلى ظفار بن حام بن نوح عليه السلام.

تسلقنا جبال ظفار العالية، ثم أخذنا الطريق الساحلي حتى بلغنا «قلهات»، وهي ميناء حصين على مقربة من ساحل مكران، جنوب شرق بلاد فارس. أرحنا فيها واستراحت النساء والصبيان الذين رافقونا لمعاونة المحاربين في تجهيز الزاد، وتضميد الجرحى، ومتابعة شؤون المحاربين.

انتشر الناس في الشعاب والوديان، يرعون الأغنام، ويجمعون خيرات الرب من كل مكان ونوع، يتسلقون أشجار النارجيل، ويقطفون من الموز اللذيذ، والرطب الذي اشتهرت به أرض مزون، منذ عصور الأجداد، ظلّ أهل المعرفة بصيد الأسماك والروبيان على السواحل الفيروزية، يقضون أوقاتهم فيها، ينعمون بخيرات البحر ونعيمه، يستقبلون سفن الصين والهند، يقايضونهم، مقابل التوابل والقز والحرير والبخور.

مكثنا، نجهز جيشنا، ونرتب سلاحنا، وحين علم المرزبان بنزولنا قلهات، وهذا ما كنت أتوقعه، طلب إلينا الخروج من الأراضي التي هبطنا فيها طائعين لا كارهين. ذكرت للفرسان سأعمل على كسب مزيد من الوقت، لأني أعرف أن الساسان جبناء وهم لا محالة خائفون، عقدت أمر التفاوض معهم لخروجهم من أعالي مزون سالمين، دون حرب وقتل وأنين، كما قلت في رسالة الوعد والوعيد التي أرسلتها إليه.

عملت على ذلك حتى أمنح الفرسان مزيد وقت، يدرسون المواقع الجديدة علينا، ويسترق النظارة أخبارهم، وعتادهم، راوغت رسول المرزبان، وبينت له إن هذا ليس من شرع الرب

الذي أشاع الماء والكلأ للناس والرعيان، وأحل الأرض مدادًا لكل إنسان.

نظر إلى وقال بحدة وغضب :

- أبلغناكم بالخروج قبل حلول الشتاء وإلا أخرجناكم بالقوة.

حينها قررت إظهار القوة والمنعة، أرسلت إلى المرزبان نفر من عتاة القوم وفرسانها، طلبت منهم أن يظهروا له القوة في الطلب، والمنعة في الرفض، وبينت لهم، أن أصروا على موقفنا، وأبلغوه بأنّ الأرض حق لنا، وإنما هو وكافة الساسان غرباء، محتلين وطامعين في خيرات العرب، وإن أرتبتم منه أو علمتم بخديعته تهاونوا في الطلب، وأظهروا القبول، وراوغوا بقولكم أن في شيوخنا نزعة رضا، وإن كانت -على مضض- لمشاركتكم الأرض، ونحن لا نبتغي إلا العيش الآمن المستقر، وإن كنا للحرب كارهين، فإننا لها وأهلها.

عاد الفرسان بسلامة الرب، محملين بالرفض، جمعت الشيوخ وأهل الرأي، أبلغتهم إن الساسان أهل غدرة، لا يؤمَن لهم جانب، ولا يؤخذ منهم ميثاق، غدرهم ليس من مكر ودهاء إنما منفرط عن

الرعب والخوف من الموت، هم لا يحاربون إلا من وراء جدر، أو على كثرة إن رأوا قلة، ويحشدون من المرتزقة خاصة من بعض العرب الفاسقين وأراذل الأقوام، يغرقونهم بالمال، ويتركونهم في أتون النيران.

الساسان قوم لم يهذبهم دينٌ منزل من عند الرب العظيم، متبعون لرجلٍ اشتهر بطول شعر أذنيه؛ أي كما نطلق عليه في العربية «مكوسٍ»، فاشتق من صفته دينهم المخالف لما نزل على رب موسى وعيسى، وسموا «المجوس»، تفرقوا إلى فرق، ولا يجمعهم شيء إلا كره العرب.

قامت عقائدهم المختلفة على هوس وهرطقة، زعموا بأن النور أزلي، والظلمة محدثة، جعلوا لأنفسهم «مثنوية» كونية، أسموهما «سبتامينو» أي العقلية التقدمية، «وأنكرامينو» أي قوى الظلام أو الشر، وجعلوها في إلههم الأوحد «أهورامزدا» ويعني الحكمة المضيئة. وأدخلوا في طقوسهم النار، وبنوا لهم معابد يطوفون فيها حول النار، يمجدونها تمجيدهم للرهبان الذين «يعتشرون» من رؤوس أموال الأتباع، وقد أخذوا عن الفيدية الهندية، هرطقة ومسوخ، كتناسخ الأرواح، ثم جعلوا لهم عيدًا أسموه «النيروز»، أي اليوم الجديد في الاعتدال الربيعي، يحتفلون به كل عام، وهو

من تقاليد الديانة الزرادشتية، التي حاربها الرومان، وهدموا معابد النار التابعة لهم، ووصفوا أتباعها بأقذع الأوصاف.

أذكر أن عمي معاوية حكى لنا، أنه ذات رحله إلى أرض الرومان سمع أحد رهبانهم يصفهم بأنهم «أشرار، عبادًا للنار، يخدمون آلهة مزيفة من عناصر الطبيعة»، وكانوا على ذلك منذ القرن العاشر قبل الميلاد. وزعموا فيها أنها أول الديانات التوحيدية، منصوص عليها في كتابهم المسمى «الأفيستا» الذي جاء في قصائد شعر.

كرههم الرومان، وحاربوهم لسنين حروبًا دينية صرفه، كانت تهدأ حينًا، وتستعر أحيانا، لكنهما حين رأوا ضعف العرب، وحاجتهم للمال، استخدموهم وقودًا لحروبهم المستعرة، فعمل بعض العرب الذين نزلوا الشام والعراق على الارتزاق من هذه الحروب، مثلهم مثل العبيد المستأجرين، فقتل فيهم الكثير، ترملت نسائهم، وضعفت شكيمتهم.

***

٩

لم أترك دياري في الحجاز العظيم، إلا تمنعًا عن محاربة الناس على ما يمكن العيش من دونه، أو بتقاسمه، فما بالي أجد الساسان اليوم يعارضونني، بل يلزمونني بالرحيل من أرض العرب دون وجه حق، نهبوا الأرض، أكلوا من خيراتها، وشربوا من زلال مائها، ثم يأمروننا بالخروج منها كما أخرجوا أهلها، إنّه لشيء عجاب! إنه لشيء عجاب!

أرسلت إليهم إنذارًا أخيرًا، إنني وقومي سنقيم في أرض مزون على كراهة منهم، وإننا للحرب التي لا تبقين ولا تذر، مستعدون!، وإننا سنخرجهم منها أذلة، مكسورين مهزومين، ومنكسي الرؤوس، يحمل قليلهم، جثث كثيرهم، نستبقي على ذراريهم عبيدًا لنا، ونسائهم سبايا لجندنا، ولن تقوم لهم قائمة في مزون إلى أبد الآبدين.

وبينا نحن في انتظار الرد من المرزبان، طلبت إلى قومي عدم ذكر اسم مزون مرة أخرى، لأن الأرض اسمها أرض عمان وهو اسمها القديم على اسم جدنا عُمان بن إبراهيم الخليل عليه السلام، ومنعنا عنها اسم ماجان السومري، واسم مزون المحدث، فليس لأحدٍ حق فيها -مطلقًا- غيرنا نحن العرب.. شاء من شاء، وأبى من أبى. وإن أول النصر هو تغيير المسميات، وآخره إجلاء الساسان ومن معهم من خونة العرب ومرتزقتها.

كنت أعرف تمام المعرفة، أنهم خائفون من المواجهة، لأن الجد قد جد، والأمر لم يبق له عندنا حد، وذلك من ترددهم، والمماطلة والتسويف في الرد، يأتون بالرأي، ثم ينقضونه، يسوفون الأقوال. ويغيرون الآراء، وبعد إلحاحٍ عليهم، ورسل كثيرة، أجمعوا على قول واحد، وهو المبيت مسبقًا «ألَّا مكان للعرب في مزون، وأنَّ الأرض في ملكنا»، وزعموا أننا طوطميون، متوحشون، كالذئاب لا هم لنا غير القتل، مع أن هذا حقيقتهم والرومان، وكما درج عندنا من أمثال، أن كل إناءٍ بما فيه ينضح!

وقفت على تبة، قبالة السَّاحل في قلهات، دعوت أبنائي والفرسان كافة، استنصحتهم للمرة الثانية فنصحوني، ثم وافقوني على إعلانها حربًا ضروس، نجلي الساسان عن أرض العرب كما

نجلي الرماد عن الكانون، ونعيدهم إلى أراضيهم خائبين خاسرين، فلا مقام لهم بيننا البتة مادامت الحياة.

اتفق فرسان العرب من الأزد والقبائل المتحالفة معها على هذا وأقسموا بالرب العظيم على التعاضد والتكاتف، وأن الموت أشرف لهم من البقاء تتقاذفهم أحذية الساسان، وعربدة الرومان.

سمعت القسم بالرب يدوي في السماء، منطلق من أفواه نيف وستة آلاف مقاتل شرس، لهم في القتال صولات وجولات، لا يحجمون عن المعارك، وهم على ركابهم عالين، وعلى أقدامهم زائدين، غضبتهم شديدة، وسيوفهم مصلته تصيب كل بيضة، وتكسر كل درع، وقد اشتهر فيهم الأزد بلقب جرثومة العرب، من قوةٍ فيهم، وبأسٍ شديد، وكذلك القبائل الأخرى عرفت ببأسها، وقوتها في المدافعة عن شرف الأمة.

وبينا نحن في محفل القسم العظيم، إذ بابني هناءة يتسلل من بين الجموع، قابضًا على رجل عربي، أقسم أنه من البائعين لضمائرهم وأخلاقهم وتأريخهم بحفنة من أموال الساسان، قال هناءة وهو ممسك رقبة الأعرابي بيده العريضة، وضاعـًا رأسه بين إبطه وصدره العريض. همس في أذني أنه رآه يقف أمام باب الكنيسة يطلب الصدقات، والآن كان بين الجموع، يعد صفوف الجيش.

نظرت إلى عينيه الغائرتين، وشعره المنسدل في فضاضة، وقد بان على وجهه غضب الرب.

عزم هناءة على قتله، أسررت له أن يطلقه وكأن شيئًا لم يكن، نحن بحاجة لمن ينقل ما نريد ونبين من قوة لأعدائنا، بلغ الفرسان أن يظهروا أمامه قوتهم وعزيمتهم، لربما ترتعد فرائص المرزبان، ويتقهقر بجيشه عن عمان، فتكون الأرض لنا دون حرب. أغمد هناءة سيفه، وابتسم ثم قبل رأسي كعادته عند كل نصح، وأطلق سراحه قائلا:

- شفع لك أبي أيها الشحاذ. أنطلق من حيث أتيت.

نقل ذلك العربي الغشيم أخبارنا، وجاءت جواسيسنا بأخبار مفرحة، أن الناس تتحدث في الأسواق عن فرساننا، ملامحهم، بأسهم، وإصرارهم على تحرير أرض عمان، وما زاد فرحي وبهجتي حين جاءني فراهيد بخبر أن بعضهم قد هرب إلى خارج البلاد، وقال إنه سمع من أحد الهاربين يقول، هذه أرضهم وحلالهم، مالكم كيف تحكمون!

****

١٠

أصحاب الحق لا يهابون شيء، مؤزرون بقوة الرب العظيم، قوتهم تتضاعف، لأن عقيدتهم التي يحاربون بها غير عقيدة الظالم المتسلل في أرض غيره. اللص ضعيف!

لكن شيطان العناد تلهى برأس المرزبان وبعض قادته، ظنوا خيرًا بكثرتهم، ودرايتهم. زعموا أنَّهم قادرون على مقاتلتنا، وراح نفر منهم يكايدون لنا كيدًا، يقطعون الطرقات، ويتسللون ليلا لنهب الدور، ولكأنهم يقولون نحن قادرون على مالا تقدرون عليه، معتقدين أن أمرنا سيؤول إلى تراجع عن محاربتهم، بينا نحن نعد القوة سرًا وعلنا، ونعقد الاجتماعات نظهر بعضها لجواسيسهم نفشي بها خططًا وهمية، ثم نعيد اجتماعنا مع القادة في أماكن آمنة، ليس فيها إلا كرماء العرب.

اتجهنا إلى مكان آمن على ساحل قلهات، تركنا فيه عيالنا وأثقالنا الذين لن يرافقوننا في المعركة التي أسسنا لها في مكان

آخر، تركنا عندهم بعض الحرس لحمايتهم من الغدر واللصوص المنفلتين.

مضينا وقادة الكتائب، لترتيب الصفوف، وتدريب الفرسان على فنون قتالية محترفة، علمنيها آبائي، بينما ذهب القادة وعلى رأسهم فراهيد وهناءة لدراسة المواقع الصفرية، وفيها أوكلا إلى كل فارس عمل يجيده، ومكان يعرفه.

بينما أتخذ أخي عمرو موقعًا في أحد الكهوف في جبال صحار الشاهقة، يستقبل فيه رسائل جواسيسنا، لينقلها لنا في موقعنا الذي أخترناه للمعركة، أرسل أبنه وعدد من الفرسان إلى السهل الممتد إلى منطقة الحجر في صحار حيث عسكر الساسان على امتداد هذه السهول والأودية.

وبرغم معرفتنا بتسلق الجبال بحكم مشابهتها لأراضينا في الحجاز، إلا أن سفيان ابن عمر قد زلقت قدماه، سقط في الوادي مصابا أصابة بليغة، علمت من أخي عمرو، أن الساسان حاولوا استنطاقه، أخذ أخبارنا الحقيقية، لكنه رفض أن ينبس ببنت شفه، حينها أخذ المرزبان يركله، وأمر بربطه في فيل ضخم، سحله حتى تقطع جسمه إربا.

قتل سفيان بن عمرو قبل أن تبدأ المعركة، وكان دافعًا لأخوته، أن ينتقموا له من المرزبان، قال أحد إخوته:

- يا عم، أجعلني في مكان ألاقي فيه المرزبان وجهًا لوجه، حتى أمزقه تمزيقًا.

استمر الجواسيس يرصدون أعداد العدو، وأسلحتهم، يتعرفون على خططهم، كل هذا كان يتوالى لي في خيمتي التي نصبت في ناحية من «الجوف»، وفيها حفر الفرسان فلجًا حتَّى يكون مركزًا لقيادة الحرب، تجتمع فيه قادة الكتائب، يرسمون الخطط تلو الأخرى.

***

١١

نحن قومُ ذو سيوف مسلطة على رقاب المعتدين، لا ننفك عن جز بيضات الرؤوس، وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف. نحن أشرس في الحرب من كل المحاربين، إن كنا أقل عددًا، لكن قليلنا يغلب كثيرهم بعون الرب العظيم، فينا من المنعة والقوة ما يفيض على قوتهم ومنعتهم، ثم أنَّهم قومٌ يَهابون الموت، أمَّا نحن فالموت والحياة عندنا سيان، إن حوربنا حاربنا لكرامتنا، ورد اعتبارنا أو الموت. وليس أتعس من أن يعيش الإنسان بلا كرامة، تتعاداه الشياطين، ويتولاه حقراء الأقوام.

عزمنا ببأس الرجال وصدق العزيمة، ألا يكون للساسان مكان في بلادنا عمان، نخلعهم عن الأرض خلعًا حتى لا تقوم لهم قائمة أبدًا.

وحين جاءتنا الرسل بخبر جيش المرزبان الذي تجاوز الثلاثين ألفًا، متجهين إلى سهل «سلوت»، في نواحي نزوى، تتقدمهم عشرات من الفيلة، وخلفهم العبيد يقرعون الطبول،

وينفخون الأبواق، تأكد لنا أن الحرب قد كشرت عن أنيباها، وأن علينا العمل الجاد، وآثرنا أن نكون أمامها، لا أذناب لها، فلا طعنًا نخشى ولا ضربا.

وقفت أمام الفرسان، موجهًا إياهم بالبقاء في أماكنهم، وأعدت تشكيل الخطط حسبما اتفقت مع القادة، تقدمت الصفوف على فرسي الأبلق، وبرفقتي ألف فارس عتيد، جعلت في الميمنة ألفي فارس، يقودهم ابني الفارس الصنديد، هناءة، وهو أشبه أخوته إلي في الطول والعرض وعلى الميسرة ألفي فارس يرأسهم ابني الحكيم فراهيد ذو البنية الصغيرة، والوجه المجدر، أنطت إلى فرسان آخرين تحت قيادات مصغرة مهام متنوعة، بين الاستطلاع والنبل والدعم، وحراسة الإمداد، ثم جعلت بعض النبالة على تلال سلوت وجبالها البعيدة، قسمتهم إلى مجموعات صغيرة، جعلت لكل مجموعة قائد، وأهداف أسررتها لهم كل على حدة.

نزلت من على فرسي الأبلق، وظهرت في درعين، لبست عليهما غلالة حمراء، متكممًا بكمامة من حديد، ومتعممًا بعمة صفراء فاقع لونها، طلبت إلى القادة مصاحبتي إلى المواقع التي استقر بها الفرسان، جعلت أدور بين المقاتلين، راية راية، وكتيبة كتيبة، ثم توسطت الجمع، وخطبت فيهم:

- يا معشر قبائل التنوخ، النجدة والحفاظ، حاموا عن أحسابكم، وذبوا على مآثر آبائكم، وقاتلوا وناصحوا ملككم وسلطانكم، فإنّكم إنْ انكسرتم وهزمتم، اتبعكم العجم في جنودهم كافة، فاختطفوكم واصطادوكم بين كل حجر ومذر، وباد عنكم ملككم، وزال عنكم عزمكم وسلطانكم، فوطنوا أنفسكم على الحرب، وعليكم بالصبر والحفاظ فهذا اليوم له ما بعده.

ثم ألتفت إلى جهة المرزبان وجيشه المتأهب على مبعدة، وجدتهم في خلق كثير جدا، وجلهم مختبئ خلف عشرات من الفيلة الضخمة، ضحكت، ولما رآني الداهية هناءة ضحك وغمز لي بطرف عينه، أعاد سيفه إلى الغمد، ثم أخرج الرماح من كنانته، في هذه اللحظة عرفت أن الوقت والجهد الذي صرفتهما في تدريب أبنائي لم يضع هدرًا، لقد فهم من ضحكتي كيف يتعاطى مع مثل هذه البلاهة الحربية، قال بصوت خفيت:

- غشماء بلهاء ليس لهم في مكر الحروب معرفة، ولا مكان لهم قبالة جيشنا، سنكون لهم بالمرصاد العنيف يا أبي، سنمزقهم شر ممزق.

حينها اقتربت من قادة الكتائب، ونخبة الفرسان التي اخترت من بين نيف وستة آلاف فارس، لأمر لم أفصح لأحد عنه، قلت:

- يا معشر الفرسان، احملوا معي، فداكم أبي وأمي على هذه الفيلة، فاكتنفوها بأسنتكم وسيوفكم.

أطلق المرزبان بوق الحرب، بادر فرسان التنوخ بضرب الفيلة بالنبال، وزرقوها بالسهام، سقطت بعضها في طريق الجنود، وبعضها فرّ القهقري، يصرخ بصوت عجيب لم أسمع مثله قط، وطأت الفيلة على الجموع وطئًا بالأقدام، فمات وأصيب منهم خلق كثير، وتقهقر آخرون كالجرذان، بينما فرساننا مستمرين في نبل الرؤوس التي تتمايل من الهلع، يثخنون في الجموع الفارة، وكان لهروبهم فرحة في قلوبنا، خاصة أن بعضهم يطأ على بعض، تحت وابل من السهام التي تصفعهم من فوق التلال، ومن خلفهم، ومن بين أيديهم.

ولما دخل الغلس، هدأ صليل السيوف، وتوقفت السهام، أصبنا من الراحة ما شئنا، فرحين بما آتانا الرب من نصر وتأزير، وأعتقد القادة أن المرزبان وقومه قد يئسوا من شدة القتل فيهم، لكني حذرتهم من أن المهزوم عادة ما يكرر المحاولة إذا شعر بثقة

خصمه بالنصر، فألزمتهم بالنهوض قبيل الفجر، وإعطاء الحراسة وقتًا للراحة.

تأهب الفرسان منذ أن بزغ النور في صدر السماء، وشرعوا في الضرب بسيل من النبال والسهام. ثم جرت السيوف لتلمع في عيون الأعداء، فرفعوا الراية البيضاء، معلنين استسلامهم، وقفنا عند الظهيرة، نرفع راية النصر، بينما هم راحوا يلملمون قتلاهم، وينكسون راياتهم المخضبة بالدماء. وقف فرساننا ينظرون إلى الساسان يقذفون بأسلحتهم على الأرض، ويهرولون باتجاه الجبال.

تأكد للمرزبان أن هزيمته هزيمة نكراء، وأن جيشه ضعف من شدة الخوف، فأراد أن يعيد لنفسه وجيشه بعض قوة وصمود، أرتقى تبة، وراح يصيح بصوتٍ مثقل بالقهر:

- أيها العربي، إن كنت ملكًا، اخرج إليَّ، فأينا ظفر بصاحبه كان له ما يريد، ولا نعرض أصحابنا للهلاك.

كانت صيحة يائس منكسر، وكان لا بد لي أن أمعن فيهم حتى يتقهقروا ويعودوا على مراكبهم إلى كرمان، حيث مملكتهم،

ومسقط رؤوسهم، أرسلت إلى ابني فراهيد وهناءة أن اركنوا، فإني له مقاتل، تفاجأت حينها فقد خرج منهم أربعة من المرازبة والأساورة، لكني فارس ابن فارس، يعي ما يفعل، وأن ما أشيع بين الناس أن أحدهم بألف رجل، لن يخيفني بل زادني إصرارًا على قتلهم وتمزيقهم واحدًا تلوَ الآخر.

تقدم أول المرازبة، بارزني على عجل، وكأني به استعجل موته، قفز كما الفرس الجامح، اصطدته وهو في الهواء، كما أصطاد الأفاعي حين تقفز باتجاهي، ضربته ضربة أصابت صلبه، صاح مرتعشًا، فقد توازنه، وسقط صريعا، له خرير وفهاق.

لم ألبث أن ألتقطت أنفاسي حتَّى تقدم المرزبان الثاني، بخطوات بطيئة، علمت أنَّ ثقته الزائدة في نفسه قد انقلبت عليه، دنا مني، وقد كان ضخمًا وذا بطن مليء، توقعت أنَّه لن يستطيع مناورة خفتي المشهودة، وسرعة ضرباتي الشديدة، التففت عليه بسرعة، حتى دنوت منه أكثر، حاول أن يلتف على ثقل، ضربته في مفرق رأسه، فلقت بيضته، وتناثر دماغه على الأرض، وكذلك فعلت بفارسهم الثالث؛ ما أرعب قائدهم المرزبان، الذي أنتقل خلف الصفوف يسوي بينهم، وقد أعتقد أن نهايتي كانت ستكون على يد أحد أساورته، بينا هو يعود منتصرًا ومرفوع الرأس، لكن

أمله خاب، فصار لا خيار له إلا مواجهتي أو الهرب، أما أنا فقد تمنيت لقائه، انتقاما لابن أخي الذي ركله ثم ربطه في الفيل وسحله على الساحل، كنت طوال مقاتلة أساورته، استرجع صورة ابن أخي أمامي، استوحي منها قوة ومنعة، وبلغ الغضب بي مبلغ، صحت عليه بصوت الواثق:

- تقدم أيها القذر

تجاهل ندائي الذي كررت كثيرًا، واستمر في مؤخرة جيشه، يدعي صفّها، يسحب ذاك، ويدفع بهذا. بدا السخط على وجيه أفراد جيشه، لما لا وقد جرجرهم بوعد أنه سيبيد العرب عن بكرة أبيهم، كان الجند يهامس بعضهم البعض، ولكأني أسمع همس السباب، ولما بلغ بهم اليأس من استجابته، انطلق أحد كبار جنده، دفعه إلى الأمام دفعًا، صاح في وجهه:

- تقدم أيها القائد

ولما أصابه اليأس صاح بصوته المرتعد:

- لا خير في الحياة، ونسائكم سبايا، ورجالكم عبيدٌ لهذا العربي القذر، أَقْبلوا عليهم، قاتلوهم واقتلوهم، فالموت لنا كرامة.

تعجبت منه هذا الخطاب، وهذا الثوران الذي لا يصدر إلا عن فارس قد شم عبق الانتصار، لكن جنوده لم يتركوه كما تركهم، فصاحوا في صوت رجل واحد:

- تقدم تقدم .. تقدم إلى العربي أيها المرزبان ..

تردد كثيرًا، لكن حين أشتد الصراخ عليه من كل جهة، جرى إليّ مباغتًا كثعلب، انتبهت له فجأة، رغت عنه بسرعة وخفة، ثم عدت وضربته على البيضة والدرع، خَرَّ صريعًا، يرغي رغاء البعير.

رأى جنده شدتنا وبأسنا، تفوق ما سمعوا عنا، وتأكد لهم أن محاربتنا ليس فيها إلا الخزي والعار لهم، صاح صائح من عندهم، مستعطفًا القلوب العربية الشديدة في الحرب، النقية في السلم:

- أمهلونا سنة نحمل فيها أهلنا من عمان إلى فارس ولكم منا الجزية وما ترون.

طلبت إليهم إمهالي بعض الوقت للتشاور مع قومي وقيادات جيشي، اتفقنا جميعًا على جزية وعطاء، على أن نمهلهم سنة واحدة في الصحاري، واشترطنا تجردهم من السلاح والعتاد. وأتبعنا ذلك بإنذار شديد حال اعتدى أحدهم أو ضايق أهلنا، فلن

ندع لهم أثرًا فوق الثرى، حينها ستكون حربًا ضروسًا، نمزقهم فيها شر ممزق، نسبي نساءهم، ونستعبد ذراريهم.

رفع ما تبقى في الجيش أيديهم، معلنين الموافقة على شروطنا، لكنهم والغدر طبعهم، طمسوا الآبار، وغموا الأنهار والجداول في البقعة التي غادروها أو مروا بها، واستبقوا على ما يسد حاجتهم.

أرسلوا رسلهم سرًا إلى الملك دارا بن ديل بن بهمن، يشتكون إليه ضعفهم، وما كان من العرب عليهم من ظلم ومكيدة. ثم استأذنوه الرجوع إلى فارس، بأحمالهم ونسائهم. استشاط الملك دارا غضبًا، وبعث إليهم رسلًا من عنده، تطمئنهم بأنه قد عزم على إرسال المدد لهم من أشد الفرسان بأسًا، وأكثرهم حمية.

جرت هذه الخديعة بسرية تامة بينهم، وقد كنا تركناهم على شرط الوفاء، ودلفنا إلى ساحل قلهات إلى حيث استقر بنا الحال، أقمنا معسكرات التدريب للفرسان، وأقمنا الأسواق للأهل والصبيان. عدنا إلى حياتنا في عيش رغيد، منتشين بنصر وتمكين من منح الرب العظيم.

تسامع العرب في كل النواحي عن نصرنا المؤزر على الساسان، اجتمع كبار القبائل من أهل عمان ومن قبائل طسم وجديس، وغيرهم ممن دخل في تحالفنا، وأعلنوا في محفل كبير تنصيبي ملكًا على التنوخ.

ما كنت للملك طالب ولا راغب، لكنها إرادة الرب الذي دفعني من أقصى الحجاز مغاضبًا، إلى هذه الأرض الندية محاربًا، وكاشفًا غمة أهلها من المتعالين عليهم، والفارضين عليهم طقوس مصادمة لما أنزل الرب على موسى وعيسى -عليهما السلام-، حد أنهم نكلوا بكل من عصى، ولم يؤمن بشريعتهم الفاسدة، فتوقفت الكنائس عن العمل، وخلع الرهبان أزيائهم وأخفوا الكتب المقدسة، خوفًا من التعذيب والتنكيل بهم.

***

١٢

انقضت المهلة مع الساسان، أرسلت إليهم الرسل، تلو الرسل، لكنهم تعالوا واستكبروا، تركوا رسائلي التي تدعوا للوفاء بالميثاق ليعم السلام بيننا، واختاروا المماطلة والتسويف حتى أنهم توقفوا عن دفع الجزية في الأشهر الأخيرة، لكني كنت أصبر منهم على الأمر، مقدمًا الحكمة على الغضب وراية الحرب الدموية. لكنهم أمعنوا في تماديهم ظنًا منهم بأننا لن نعود إلى محاربتهم خوفًا مما سربوه إلينا من أخبار مبالغة عن عدتهم وعتادهم الموهوبة لهم من ملكهم دارا بن ديل بن بهمن.

طلبت من أخي عمرو أن يصطحب معه فرسان تميزوا بضخامة أجسادهم، وقوة ضرباتهم، يبلغهم الرسالة التي أسميناها «الإنذار الأخير»، ضمنتها بأن عدم وفائهم بالميثاق المعقود بيننا منذ العام الفائت سيفضي إلى حرب ضروس.

في اليوم التالي من عودة عمرو وفرسانه، شرع الساسان في استفزازنا، يقطعون الطرق على القوافل القادمة إلينا، ينهبون ما فيها من خيرات قادمة إلى سوقنا في قلهات، وتطور الأمر حين بدأوا يغيرون على مزارعنا، يسرقون المحاصيل، صبرنا حتى ظنوا أن صبرنا الطويل منفرط عن خوف من تهديداتهم التي كتبوها بالخط المسند على رقعة صفراء وفيها: «باسم نبينا المبارك زرادشت، وبعظمة انجورامينو (الموت والشر)، وملكنا المعظم دارا بن ديل بن بهمن، إنه أمددنا بفرسان لا قِبل لهم، يزلزلون الأرض زلزلة تحت كل عدو، أخرجوا عن مزون أو القتال».

حينها تأكد لنا أنهم اختاروا الطريق الأصعب، اختاروا الحرب التي لن تبق منهم أحدًا بإذن رب المسيح.

أنطلق أخي عمرو وجيش المخبرين يستطلعون أمرهم بدقة، ويحصون أعدادهم وعدتهم. قالوا أنهم في ثلاثة آلاف فارس من نخبة الساسان، إضافة إلى أكثر من عشرين ألف مقاتل مترجلين عليهم خوذ من حديد.

أغاظني الأمر وحرك الفرسان في داخلي. قلت لأخي أرسل إليهم، أنني زاحف على جيش عرمرم فيه من البأس ما لم تره

عين أو تسمعه أذن. وأنَّ جرثومة العرب وحلفها التنوخي قد عزموا على قتلهم وسبي نسائهم وذراريهم، إن استمروا في غيهم وعزتهم بالإثم واستفزازهم بفرسانٍ وصفها الوصاف بما يخيف الرجال ويسقط حمل النساء، لكن هذا يصح فيهم وعليهم وليس في جرثومة العرب ومن تحالف معهم من قبائل، لا تهيبهم عددا ولا عدة، بل فيهم ينبت الفرح وحب القتال حين يصول أحد - مهما بلغ من قوة - على أعراضهم وأراضيهم وأموالهم.

فزّ هناءة من مقعده، نفخ البوق، اجتمعت الناس بطول ساحل قلهات، أومأت إلى قادة الكتائب أن يجهزوا كتائبهم على جناح السرعة، وتعبئة الفرسان والعدة والعتاد لزحف عظيم، زحف ستشهد له العرب والعجم طوال التاريخ وتسطره بأحرف من ذهب.

انطلق الجميع كلٌّ فيما يعرف ويتقن، رجال تحد السيوف وتجهز الأسهم والنبال، وآخرون يشدون السروج على الأفراس، ويستبدلون حدواتها استعدادًا للجبال والرمال، أمَّا النساء فقمن بتجهيز العزال والمؤنة من رطب الخلاص والخنيزي والمدلوكي، وعجن الأخباز والسمن والزبد، وتعبئة القرب بالماء، وحملها على الجمال المرافقة لنا.

لقد عزمت أن تكون هذه الحرب قاصمة لا هوادة فيها، وموعظة وذكرى للملك دارا بن ديل بن بهمن ومبكى له على فراق أحبابه ورجاله، خاصة أنه جعل قيادة الجيوش في «سندفار بن مرزبان» وهو من أخص خاصته وأشجع رجاله. وقد عزمت على قتل هذا القائد الأجل فيهم، وأسررت بذلك إلى ابني فراهيد بن مالك حتى تُكسر شوكتهم ليس في أرضنا وحسب، بل حتى في بلادهم وبين أهليهم، لأننا قوم لا أعز علينا من أن يقتل فينا رجل أو تسبى لنا امرأة؛ والهزيمة ليست من خياراتنا البتة، إنما النصر على الأعداء وتشتيت شملهم قددا أو الموت الكريم.

ولما جنّ الليل اتخذنا مواقعنا في أرض المعركة، طلبت إلى الفرسان التعرف على مواقعهم بدقة، وما يحيط بها من موانع ورمل وحجر؛ حتَّى نكون على معرفة بكل التفاصيل الدقيقة، ونستعد كل استعداد إلى ما سنلقى. وأبلغت النساء اللائي كنّا على مبعدة بقرع الطبول ساعة انفجار النور في السماء.

طلب القادة في كتائبهم أن هلموا أيها الفرسان نحن على شفا وطيس حام، ليس لنا فيه إلا الموت بعزة وكرامة أو النصر والعيش في عزة وشمم، لف الفرسان الأقنعة، ولبسوا الدروع والبيض والجواشن فلم يظهر منهم غير الحدق.

في الجهة المقابلة نفخ المرزبان الأبواق، وقرع جنده الطبول فحمي الوطيس، التقت السيوف بالسيوف، صاح الصرعى، وبكت النساء، امتلأت السماء بغبار العراك حتى لم يعرف القاتل قتيله، ولا عرف الفارس الأرض من السماء، حتى فرّ منهم نفر كثير، لحق بهم ابني هناءة ورجاله، فتك بمن فتك من الفارين ونجى منهم من نجى في ذل وكسر، ثم قفز أحد الفرسان على فيل المرزبان، ضربه على خرطومه فولى وله صياح عجيب، لحق به معن بن مالك فصرعه كالنعجة.

انطلق ابني فراهيد بن مالك خلف سندفان المزربان الذي ركب على فرس سريعة، لكن العزيمة والإصرار غلبت، فظفر به، أسقطه أرضا ثم جثا على جسمه المبروم وغرس رمحه في صدره حتى تصدعت أضلاعه وتوقفت أنفاسه.

هرولت في سعادة وفرح إلى فراهيد، قبلته على رأسه، ثم نظرت إلى الأعلى إذ بالسماء قد حجبتها الغربان التي لم تلبث أن نزلت على جثة سندفان تنهش في لحمه وتشرب من دمه الفائر.

وحين أسدل الليل سدوله، وحال الظلام بين الفرسان والهاربين من بني ساسان، سكت صليل السيوف، ولم يبق صوت

غير صوت الأنين، والنزاع الذي ينبش الصدور؛ صف هناءة فرسانه وراح ينشد فيهم وهم يرددون خلفه:

يُذكّرنا فِي الود أَيّامَ شَعثَمِ
لَيالِيَ أَسبابُ الهوى لم تُجَذَّمِ
وَما ذِكرهُ عصرَ الصَبا وَقَد اِكتَسَت
مفارِقَه لَوني خَليسٍ وأَسحَم

تمتمت حينها شاكرًا الرب الذي أَعاننا، ونصرنا على المعتدين الغاصبين الذين جاءوا إلى عمان، وحامده أنه جاء بنا إلى هذه الأرض الطيبة، حتَّى عادت للعرب وللعرب وحدهم فقط، وليس للغزاة في أي أرض عربية موطئ قدم، وإن دخلوها، وعاثوا فيها لسنين، فمصيرهم الدحور، ولو بعد حين.

تحقق لنا النصر المبين، ووعد الرب الأمين الذي لا يخلف وعده المؤمنين، ولم يبق من الأعداء المعتدين غير من قبل بالمكوث بيننا صاغرًا، أما أسرى الحرب فقد أكرمناهم وكسيناهم، ثم أرسلناهم إلى بلدانهم، وكنت أول ملك يعمل بهذا بعد أن من الرب عليَّ بالنصر المؤزر على عدو تشرس عليَّ ونقض المواثيق،

بعدها انتشر أهلنا من العرب في صحار وفي أودية وسهول عمان التي أصبحت جزءا من مملكة التنوخ، آمنين غير مفزوعين، ولا خائفين. واجتمعت القبائل العربية في عمان والبحرين وامتدادهما، على كلمة سواء، تحت لواء واحد، عاصمتها قلهات. وصرنا نتردد بينها وبين الحيرة التي ضممناها إلى مملكة التنوخ، وأمرت عليها جذيمة الأبرش.

استقرت المملكة، وتثبتت قوتها، وأخصبت أرضيها، نهضت الزراعة فيها، وصيد الأسماك في قلهات، والمدن الأخرى المشاطئة. كانت أراضينا المتاخمة لأراضي أخرى انشقت فيه الطوائف، فعاث الأعداء فيها فسادًا، ولمَّا اجتمعت كلمتنا مع قبائل العرب، على إنشاء مملكة كبرى، يهابها الأعداء، تكون نجدة للعرب في كل الأنحاء، لحق بنا من العرب الكثير، وعلى رأسهم عمرو بن عامر بن ماء السماء، وولده الحجر والأسود، وربيعة بن الحارث، ملارس بن عمرو، وعمران بن الأزد، واليحمد، وبنو غنم بن غالب، والحدان وأخوها، بنو شمس، والصيق وبني يشكر، وغامد، وخوالة. ثم التحق جماعة آخرين من بني النيت من الأنصار وآل لري بن غالب. ونزل أيضًا أناس من قضاعة وتميم وعبد القيس، وغيرهم كثير.

انتشر العرب في أصقاع عمان، استراحوا في بساتينها، وتجملوا بأعطارها، أرسلت إلى زعيم قبيص: الحيقاد بن الحنق، أن يشتد بنا، لنوجه جيشين عرمومين إلى العراق، نجلي عن بابل وما حولها الأرمانين، وبقايا الفرثيين. وحين تحقق لنا النصر المؤزر، أكملنا طريقنا، بجيوشنا إلى مملكة الأردوانيين، وأخرجناهم أيضًا مدحورين. فاستتب الأمن في المملكة وأطرافها، واستقر الحال لسكانها، انتشر الأمن، وانتعش السوق. وعلى مشارف الأنبار، حدود الحيرة في العراق، أعلنا انضواء المناطق المحررة كافة، تحت لواء مملكة التنوخ وعمان التي أصبحت أكبر مملكة عربية عرفها التاريخ البشري امتدت من حدود الحيرة شرقًا وحتى حوران غربًا، إضافة إلى عمان والبحرين وجزء كبير من شبه الجزيرة العربية.

***

١٣

ظللنا في الأنبار لأشهر عدة، أنشأنا فيها مجلسًا للحكم، واستمعنا إلى رعاية المملكة، أعطينا كل ذي حقًا حقه، بعدها عدنا إلى قلهات التي اتخذتها عاصمة للمملكة، لكن الأمر لم يستقر خاصة في أطراف عمان بسبب الخلافات المتأججة على السلطة، طلبت مقابلة «مالك بن زهير»، من أمراء حاضرة عمان، وهو رجل عظيم الشأن والسلطان، ذو سيادة ومنعة، لم يلبث أن حسم الخلاف بيننا، وطلب إلي الزواج من ابنته الحزام، مشترطًا ولاية العهد لسبطه منها، وحتى تنجبر الكسور، وتتحد المملكة قبلت الشرط على مضض.

ولما هلت بشائر حمل زوجتي الحزام، تمنيته ذكرًا لأسميه «سليمة»، لأنه سلامة لوحدة الدولة، وتمنيته أن يكون سالمًا من العيوب والنقائص.

هلّ علينا ببياض وجهه الذي أخذه عن أمه، واتساع عينينه وكأني به جده فهم الدوسي. فرحنا به، وفرح به جده مالك بن زهير فرحًا شديدًا، وقام بنفسه على تعليمه، وتدريبة، وإعداده لحكم التنوخ وعُمان.

وأما أنا فلم أدخر وسعًا في صرف بعض من وقتي معه رغم مشاغلي الكثيرة في البلاد، حرصت على تعليمه لغة الأزد الحربية، وعينت له من الفرسان الأشداء من يعلمه الرماية، وركوب الخيل، حتى لا يقل عن أخوته في الفروسية. ولم يلبث بعض أخوته وخاصه فراهيد في تعليمه، وتدريبه مما أخذه عني، من علوم حربية وآداب عربية.

برغم هذا، إلا أنني شعرت كثيرًا بأزيز فتنة تحوم حول رأسي، ولكأني بالنبي يعقوب - عليه السلام – مع إخوة يوسف -عليه السلام-، حيث جرى الشيطان بينهم، فكادوا له، وألقوه في بئر معطلة، ثم جاءوا إلى أبيهم بقميصه مخضب بدماء كاذبة، زاعمين أن الذئب أكله، بينما نحن عنه لاهون.

ولأني عشت طويلاً، ورأيت كثيرًا، وتعلمت من الدنيا ما لم يحض به كثير من الناس، وعرفت أن الحسد حالق، يحلق دين

الرجل ومروءته، وهو من معاول الشياطين، تسعى به بين الناس، تفرقهم، وهو أسهل النزغ، وأمضاه، يستسلم له الضعفاء، فيزدادون ضعفا، ويتبجح به الحقراء، فيزدادون حقارة.

خشيت أن ينزغ بينهم الشيطان، وما الأزيز حول رأسي إلا إنذار خطر، ولم أكن أترك ولاية العهد لغير مستحقها، لكن وحدة المملكة اقتضت الاتفاق مع مالك بن زهير على الزواج من ابنته الحزام، وجلّ أبنائي، يعلمون أن زواجي منها لم يكن مدفوعًا بشهوة تجديد فراش، إنما حفاظ على وحدة البلاد التي أنتعم الجميع في خيراتها، حد أننا لم نجد فيها فقيرًا أو معترًا. ولقد حرصتُ أن أعالج الأمر بحكمةٍ اشتهرت بها بين قومي حتى لا يكايدوا لأخيهم، يؤذون أنفسهم، ويؤذونه، فتؤول مملكتهم العظيمة إلى الدمار.

معلوم أن الممالك العظيمة يسقطها ابناؤها حين تتسع دوائر الاختلاف بينهم، ويتشتت أمرهم. فاتخذت قرارات عدة، جعلت في المملكة إمارات، عينت عليها بعض الأبناء المتميزون بالقوة، والمنعة، ومعرفة درجات الحكمة الثلاث التي تقتضي إعطاء كل شيء حقه في وقته، وجعل الرب العظيم نصب الأعين، شاهدًا على كل شيء، والتبصر حتى جلاء الحق.

أرسلت جذيمة الأبرش أميرًا على أنبار العراق، وبعثت هناءة وفراهيد إلى بعض الأمصار، يديرون شؤونها ويجهزون جيوشها للدفاع عن كل بقعة فيها، وظل الباقون يعاونونني في إدارة المملكة من قلهات.

لم يلبث الشيطان الرجيم أن نزغ بينهم، زين لهذا، وأغاض ذاك، ودلّهم على نقيصة في سليمة، وحين علمت بها، قلت «من ليس فيه نقيصة فليركلني بقدمه»، لكن الأمر اشتد حينما اتخذ رئيس الحرس معاوية بن مالك قرارًا بعزل أخيه سليمة عن حراستي، دون علم مني، أو شور.

سمع بذلك جده مالك بن زهير، جاءني غاضبًا وشاكيًا الفتنة التي سعت بين معاوية وسليمة، وما قد تؤول إليه من نقض الاتفاق الذي بيننا، وإقصاء سليمة عن ولاية العهد، أكدت له أن هذا لن يحصل البتة، لأن الفرسان جذيمة وفراهيد وهناءة، لن يسمحوا بذلك، وهم على العهد والوفاء، ولن تسمح أخلاقهم النبيلة في نقض أي عهد اتخذناه. فهم عرب أقحاح وهذا أمر معيب عندهم، ولن يعصهم إخوتهم الصغار في أي أمر.

لكن -لا أخفيكم- شقّ عليّ الأمر، وخفت من تفاقم الخلاف بينهم، ومن تسلل الخبر إلى الأعداء المتربصين، الذين حتمًا سيستغلونه لتدمير المملكة العظمى. فالممالك المتماسكة لا يستطيع أحد أن يدمرها إلا من الداخل، يذكون النار بين أهلها، ويشيطنون ملوكها وأمرائها حتى يخلخلوا النسيج الاجتماعي فتهوي حد الدمار، وتتجاذبها القوى الخارجية الخارجية، لتفسد فيها، وتستغل مواردها، وتستعبد من فيها.

حينها قررت أن أتقلد الحكمة التي اتسم بها الحكيم لقمان بن ياعور حتى لا يسقط الأبناء في وحل التقاتل بعدما أدخل غفوة الرمان، يحصل لهم ما أكره ويكره العقلاء، حينها سيغشاني ندم يونس عليه السلام، وليطمئن قلبي، قررت أولاً أن أختبر سليمة بنفسي، فإن صدقوا فيما ذهبوا إليه، أعالج الأمر - أيضًا - بطريقتي الخاصة، ولن أدع الأمر يتفاقم وينفجر فتذهب ريحنا.

ففي ليلة مطيرة، طلبت من سليمة أن يقوم على حراستي بنفسه، فزَّ من أمامي كالأسد، فرحًا بالمهمة التي حرم منها لأيام، برقت عينيه، وقبل رأسي، ربط محزمه، وحمل عتاده، قفز قفزة الفارس على فرسه التي سماها «السفعاء»، لما فيها من جمال يسر

الناظرين، نظر إلى متبسمًا، ثم مضى، لا يلبث أن يلتفت صوبي وأنا أتابعه حتى ابتلعه الظلام.

دخلت إلى ديوان الحكم، رتبت بعض الشؤون، وقبل أن أغادر، أوهمت الجميع بأنني متعب، ولابد لي من النوم، استقبلتني أم سليمة، في دارها، متوجسة، أفصحت لها عن مخططي عند انتصاف الليل، فاشتغلنا في خبز عجين الخبزة الحجازية، بعد أن هدأت، وتنفست، وضعتها على «الصلاة»، أشعلت النار عليها، وضعت العجين، حتى أستوى، أكلنا منها ما تيسر مع قليل من «الحقينة»، التي أعدتها أم سليمة.

حين انتصف الليل، خرجت متسللاً، حاسرًا الرأس، مشيت خفيٌّ مستتر إلى الكهف الذي قيل إن سليمة اعتاد الاعتزال فيه، يكرع النبيذ حتى يغالبه النوم!

تحسست الطريق الوعرة في الظلام، تنقلت بهدوء، جست ببصري كل مكان حتى لمحت زول «السفعاء» نائمة في هداة الليل، ثم لمحته مستلقيًا على الأرض وله غطيط غلب على صوت حفيف الشجر، وقطرات المطر، تأكد لي أنه في نوم عميق، هممت بالعودة لمعالجة الأمر لاحقًا، تعثرت قدمي، أحستْ فرسه، صهلت،

فزّ مفزوعا، حينها سمعت جلبة وضع الكنانة في كبد القوس، صحت يا بني:

- لا ترم أنا أبوك

صاح فزعًا..

- أواوه يا أبتي.. لقد ملك السهم قصده،

استقر السهم في خاصرتي، سقطت على الأرض، فزّ من فوره نحوي، رفع رأسي، ضمني إليه بشدة، وراح يبكي بشدة، يحثو التراب المبلل بدمائي، وهو يردد في بكاء:

- يا أبت ظننت أنك العدو، رميت قبل أن يرمي، لم أع إلا حين سمعت صوتك! يا أبت أنا الآن بين يديك! أخرج السهم المسموم من خاصرتك، ضعه في عنقي، لأني لا أستحق بعدك أنْ أمشي على قدمين.

لم أستطع الرد، كنت حينها في نزاع مؤلم، تحسست لساني الذي جف، شعرت برغبتي في القيء من حرارة زغبت المعدة، علمت حينها أن ساعة الرحيل قد حانت، ولابد لي أن أسرع في ترتيب

شؤون الخلافة في هذا الظرف العصيب، السم لن يمهلني أكثر من يومين أو ثلاثة كما أعلم، فلا بد لي من الإسراع في العمل، حماية أسرتي من مقاتلة بعضها، وحماية الدولة العظمى من السقوط.

***

١٤

قبل أن أنتقل إلى البرزخ الشاسع، والبهاء الواسع، شعرت بغرغرة الروح تسحب معها السم المستقر في كبدي، جمعت أبنائي، أقسمت عليهم بالرب العظيم، أن يجتمعوا على كلمةٍ سواء، وأن يجعلوا عامهم كله عزاء، لا يُحْاسب فيه أحد، وألا يلام فيهم مخطئ، كنت حينها أعني صراحةً، عدم محاسبة سليمة على خطأه الشنيع حتّى يخف أوار الحزن، وتجف دموع الفراق.

والوقت خير علاج للنفوس الثائرة، مهدئ لها، ومروض لغضابها، لأن الحكم أثناء الغضب لا يأتي إلا بالمهالك، ولا بد لي تفتيت أحزان أبنائي وغضبهم على أيام السنة، حتى إذا حكموا على أخيهم سليمة، يحكمون بالعدل، وبتحكيم العقل لا العواطف وحسب، لا يمكن لعاقل منهم، أن يهدم ما بنيته على جماجم الساسان والرومان والخونة من العرب.

الغضب في كل حال قتَّال، وله أوار النار، ما زلت أذكر حين اصطحبني أبي إلى البستان، أجلسني على أريكته الخشبية تحت عرائش العنب، طلب مني عدّ أنواع وألون العنب المتدلي، رفعت رأسي أتفحص وأعد، « رازقي.. أخضر .. أحمر ..» لم ألبث حتى قال لي، أنظر هنا، إذا به وضع إناء على النار، قال لي أدنو وهو يشير إلى الإناء، وحين دنوت منه، سأل ماذا يوجد داخل الإناء، قلت له لا أعلم!، لأن الماء يفور فقد حجب عني النظر، حينها قال، إذا غضب الأنسان فارت مشاعره كالماء، فلا يع ما يقول أو يتخذ من قرار. انتبه يا بني.. ومنذئذ، وأنا حريص كل الحرص على ألا أتخذ قرارًا حال الغضب.

لذلك أمرت الأبناء، ألّا يتخذوا في أمر أخيهم أي قرار في سنة العزاء، وألا ينجرفوا خلف العاطفة كما ينجرف عامة الناس، الملوك لا يسلمون عقولهم للعواطف، ولا يستعجلون اتخاذ القرارات.

قلت لهم، أن سليمة بشر، يخطئ ويصيب، حتمًا لم يقصدني، لكن قصد الزول الذي أعتقد أنه عدو صائل، وتعجله بالنبل لحمايتي من الزول المتسلل، تعلمون أنه لم يعلم أنَّه أنا، جئته متسلالا في غلس حتى أراه وهو نائم، أعاتبه، وأعلمه، لو لم تقولوا

لي هذا وتعاملتم مع أخيكم بذكاء وحنكة، لما حصل كل هذا، لكنكم قدمتم الفتنة على الحكمة فأنتم له شركاء، فرحت مليّا حينما طأطأوا رؤوسهم..

آه.. الآن السم يتسلل إلى قلبي، صدري يكاد يتفتق، لقد حانت ساعة الرحيل، يا أبنائي، لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، إن ظني بكم كيقيني، محسنون، صادقون، لا تريدوها فتنة. كررت، ليكون آخر كلامي لهم:

- أنتم تعلمون أنني تسللت في الليل الكالح ظلمة، حتى أطفئ جذوة الخطأ، وأخلع ثوب الخوف الذي ألبستموني، لكنه رمى، وليته ما رمى! ولم ألبث إلا وهو في خاصرتي، يحرق أحشائي، علمت أن السهم مسمومًا، تأكد لي ألا أمل في النجاة، لذا جمعتكم أوصيكم في أنفسكم، وفي أخيكم. أخذت نفسًا عميقًا وشهقت شهقة ... ثم انتزعت الكلمات من جوفي ...

- أمَّا الدية فهي مني إليَّ، واعلموا يا أبنائي، أنَّ مثلي لا يموت، أنا بينكم بروحي وعملي، إن صدقتم الحياة، وصدق العرب في البقاء. بين أيديكم الآن، أكبر مملكة عربية، حاربت أعتى الجيوش، من أجل الأزد، جرثومة العرب، ومن أجل العرب

الذين منَّ الرب العظيم عليهم، جعل أراضيهم منزَلًا لكثير من الأنبياء والرسل، أنتم خير من يحكم الأرض، تمدون في نسبي، وتحفظون ربقة العرب، وتمدون عزهم ورفعتهم، وتعينون في نصرهم على الأعداء. وإني على يقين، بأني تركت من بعدي فرسانا عظماء، يقومون بما قمت به وأكثر، ولا أخال أنكم تعلمون أني كنت في السبعين من عمري حين أمضيتها مُلكًا على عمان والتنوخ.

ألتفت إلى يميني، حيث هناءة، يتمتم، حسبتها نظرتي الأخيرة قبلما يغمر جسدي التراب، موطأ الأقدام، ومبصق الذهول، كخرقة بالية، تأكلها العثة، سيبلى جسدي ليعيش الدود، لكني لن أشعر بشيء، فالروح في غفوة الرمان، تستقر عند رب رحيم، ألقيت أذني عنده حتى يكون آخر ما أسمع من طنين، سال صوته المتهدج في أذني، وأنا منطلق إلى فضاء عظيم، سمعته ينشد

لَـو كانَ يَبقـى علـى الأَيـام ذو شَـرفٍ
لِمَجـدِهِ لَـم يُمـت فَهـمٌ وَمـا وَلـدا
حلَـت علـى مالـكِ الأَمـلاكِ جائِحَـةٌ
هَـدَّت بِنـاءَ العُـلا وَالمَجـدِ فانفصدا

تسللت معاني قصيدته إلى دمائي، ورأيته وأخوته كالدوائر، يحومون بجانبي في الفضاء، يزاحمون الغبار الأخضر، ويستنشقون النسيم اللؤلؤي، غفوت، فوجدتني منعتق من ظلمة إلى نور ليس كمثله نور، أرى كل شيء صغير وحقير، كل شيء كأنه نمل تحت أقدام الماشيين. فتذكرت قصة نبي الرب سليمان عليه السلام مع النمل، وكانت آخر العهد بما تعلمت من الدنيا.

***

١٥

أفقت كالنور، أترقب الأبناء، أتابع أحوالهم، فلم أمض إلى بعيد، سفري قريب، قريب جدًا، كأنه رمان في بستان أبي، يتفتح، ويغفو، أسمع أحاديث أبنائي الآن، وأرى كل شيء في ذات الوقت، لا شيء يزاحم شيء، رأيت سليمة ينسل من بين إخوته.

اختفى خوفًا على حياته، مبتعدًا عن عيون زائغة كانت تترصد له، ليس من إخوته وحسب، لكن من كل أحد في المملكة.

أرسل هناءة الفارس المغوار، والحكيم المختار، فرسان محملون بالماء والزاد يجوبون الأودية والجبال، يبحثون في الكهوف، وفي أطراف المدن، بغية أن يعيدوا سليمة إلى بيته سالمًا معافى.

مضى شهران، ومازال الكل يتساءل عن مكان اختباء سليمة، الفرسان مازالوا في بحث مضنٍ.

- لا تعودوا إلي إلا وهو معكم، سليم معافى.

قال لهم هناءة. لأنه لم يفقد الأمل، فكيف تبتلعه الأرض؟ لا بد أنه في مكان ما! لم يصل أحد إليه، لكن في صيف البحرين الحار، وفي شدة من غبار، طرق باب الكنيسة، خرج الراهب، إذ برجل أشعث أغبر، نحيل حد الموت، عليه علامات السفر الطويل، بعد هنيهه تعرف عليه، أدخله دار الكنيسة، وأرسل في طلب هناءة الذي جاء مهرولا، أخذ بأخيه إلى صدره، راح يمسح الغبار عن وجهه، ويدلق الماء، ثم طلب من الراهب أن يعد له الطعام، وأن يجلب له العلاج.

طلب سليمة أن يرى قبر والده قبل أن يغمض عينيه، حينها لا أخفيكم أنني شعرت بدبيب قدميه تقترب من قبر جسدي، شعرت به منكفأ على قبري، يبكي، ويكرر اعتذاره وقسمه بالرب العظيم، بأنه لم يَعِ أنَّه أنا، وأنَّه ما زال يتمنى أن يعود السهم إلى صدره، قبَّل التراب، أخذ حفنة في كفيه، حثاه على رأسه.

قبض هناءة على يديه، وأزال التراب من على وجهه، قبَّله بين عينيه، وتبعه من حضر من إخوته واحدًا تلو الآخر، إلا معن المشتهر بطوله الفارع، ووجه الطويل، تنحى واعتزل، كان ينظر من مبعدة، يقلب كفيه في غضب عارم، ويصد نظرات الاسترحام المنطلقة من عيني سليمة بين الفينة والأخرى، وحين ناداه سليمة

ليقبله، ويستسمحه، أشاح بوجهه عنه، وعاد يرمقه بنظرات منطلق منها شرر، حينها تأكد لسليمة أن معن لم يعف عنه، ولن يعف البتة، أسر إلى هناءة بخوفه من معن وأصحابه، قال

- زودني بالمال والرجال، دعني أغادر إلى أرض الرب الواسعة، فلا مقام لي هنا.

لكنّ هناءة المعروف بحكمته ورجاحة عقله، وبقصره، وعضلات صدره البارزة، طمع في إصلاح ذات البين، ألتفت إلى إخوته، ناشدهم بالربّ وبالدم، والقربى ألا تفارقوا، فنهلك جميعنا، وتتفتت المملكة، أو تذهب إلى غير عودة لمن لهم فيها أطماع، خاصة أن المُلك ذهب بأمر أبيهم إلى عمرو بن فهم، وهو شيخ كبير، وله أبناء كثر، وليس لديه القدرة على محاربة الأعداء المتربصين.

وقف هناءة أمام إخوته، قال :

- إن أبانا تحمل الدية عن نفسه، على مشهد منكم، وها أنا أخوكم هناءة بن مالك بن فهم، أتعهد بتكفل دية أخرى، وأعفي بها سليمة عن القود.

قبِل الجميع، وأعلنوا العفو عن القود، إلا معن قال، قبلت الديه! ثم سكت عن قبول القود!، حينها تأكد للجميع أن خلف سكوته نية الأخذ بالثأر!، تمتم، سليمة، لا بد لي من الرحيل إلى مبعدة لا يعرف عنها أحد.

جهزّ رحله، وتسلل من ليله، في عباب الغلس الداكن، ركب مركبًا صغيرًا كان رابضًا في البحر، ومعه رهط من قومه، أبحروا باتجاه أرض كرمان، ليتزودوا منها لرحلة طويلة، لم يك أي منهم يعلم مداها، ولا اتجاهها!

هبطوا في أرض كرمان، لم يلبثوا حتى قابلهم بحارتها سألوه عن مبتغاهم، وعن هوياتهم، لم يفصح أي منهم بحقيقته، خوفًا من الانتقام منهم، خاصة سليمه، كونه ابن الملك الذي قاتلهم لسنين، أخرجهم من عمان، استعبد رجالهم، وسبى نساءهم، أجابهم وهو يتمثل التأتأة في الكلام :

- نحن بحارة هائمون، نبتغي في بحار الرب وأراضيه تجارت تغنينا عن السؤال!

- رحبوا بهم وأكرموهم، علهم يستفيدون منهم ومن المتاجرة معهم، خاصة أن العرب عرفوا بفطنتهم في التجارة.

وعادةً البحارة يودون بعضهم، طبيعة أملتها عليهم البحار، علمتهم ألَّا معين لهم بعد الرب العظيم إلا التعاون، ففي البحار تغرق العنصريات، وتخفت العنتريات، ليس مثل أهل اليابسة حيث يشعر الكثير فيها ببعض أمان، في البحار لا يعلم البحارون، متى ستتلاعب بهم الأمواج، ومن سيمد لهم العون؟!

ظلّ سليمة ورفقائه متنقلين في أرض كرمان، يتاجرون مع أهلها، بيعًا وشراءً، واشتهروا بمسمى البحارة الغرباء، أعجب بهم شاه بندر التجار، أكرمهم، وقرب سليمة إليه، حيث رأى فيه سيماء الحكماء المحنكين، دعاه ذات مناسبة إلى داره، أكرمه أي إكرام، فتأنس لسليمة البقاء في كرمان، والعمل مع الشاه بندر في البيع والشراء، ولم يمض كثير زمن حتى عرض الشاه بندر ابنته على سليمة، فهي من عادات الساسان، إذا أحبوا أحدًا عرضوا لهم الزواج من بناتهم. لم يلبث سليمة أن قبل العرض، لعله يتقي شر الساسان، ويعدون فيهم نسبًا لكبرائهم من قبائل الأسفاهيين، رزقه الرب العظيم منها بالولد الكثير، فكانوا له بشرى خير، وحسن طالع.

وبرغم الأنس ولذة العيش في كرمان، إلا إن أشواق سلمية لزيارة قبري وقبر أمه التي لحقت بي من شدة الحزن، كانت تعصف جنباته كل ساعة وكل حين، وذات نزهة، وقف على الشاطئ، نظر إلى سواحل عمان، فتراءت له نيران قلهات تتراقص، ولكأنها تشير إليه، تدعوه إلى الاقتراب منها، تضيء له الظلام المنتشر، ذرفت عيناه دمعًا سخينًا، خبأهما بكلتا يديه، وأنشد بحنين مستعر:

كَفَى حَزَنًا أَنّي مُقيمٌ ببلدةٍ
أَخلائي عَنْهَا نَازِحُونَ بعيدُ
أُقَلِّبُ طَرفي في البلادِ فَلا
وجوهَ أخلائي الذينَ أريد

ظللت في غفوتي هذه منصتًا لشعره، هز كياني، وجرف دمعي، وددت حينها ألّو كان لي صوت يصل إليه، فأخبره بأَنني مشفقٌ عليه من الوجد والغربة، ولكررت على مسمعه قصة غربتي عن الحجاز، موطني وموطن آبائي وأجدادي.

كانت الغربة قدري، واختيار الربّ العظيم لي، ألححت عليه في الدعاء ألَّا يبعدني عن السراة، حيث ضمت عظام أمي وأبي، أستمديت من نسائمها الحياة، ونشأت في ربوعها، وبين زروعها.

استجاب لي الرب العظيم بما هو أصلح لي ولأمة العرب، فالربّ العظيم، لا يخيب رجاءت الداعين والمستجيرين بعظمته، يحقق لهم ما يطلبون، أو يصرف عنهم نازلة، أو يدَّخرها لهم إلى يوم يبعثون، بعد أن ينزل نبينا عيسى -عليه السلام- إلى الأرض، يقتل المسيح الدجال، وهو النذير إلى القيامة الكبرى.

***

١٦

مازال سليمة يلوم نفسه حد الانكسار، وبدا على عينيه المتسعتين ذبول، وعلى وجهه الدائري شحوب، لكنه بجسمه الفارع، استمد من انكساره الداخلي قوة، حينها صدقت حدسي، أنه سيحفظ اسمي في عنان السماء.

كان ينتقى خطواته، خطوة خطوة حتى وصل إلى أهداف حددها مسبقًا، وخطط لها مليا، خالط أهل كرمان، وأبان لهم جمال روحه، وسلامة سريرته، وعلو كعبه وجزيل أمانته، أحبه الناس، قربوه إليهم. حد أن تقرب إليه علية القوم من وجهاء وأمراء، جالسهم في مجالسهم، وتأنس معهم، وبهم، فاطمأنوا إليه، واطمأن لهم.

وفي أحد الأمسيات الباذخة بالفكر والشعر، أسرّ له أحد الأمراء، بما لم يسر به صديق إلا لصديق حميم، فبادلهم السر بالسر، وبين لهم هويته الحقيقية، وحكى لهم قصته منذ أرسل السهم إلى قلبي، لكنه زاد في توخٍ للحذر من طبائعهم المتقلبة، قال، إني خبأت

عن أخوتي أني تعمدت قتل أبي، لخلافاتنا الكثيرة، ومنها مقتلة الساسان، وهم فينا نسب منذ قديم الأزل، وأنهم طيبون، مبتلون بحكام غير أسوياء، همهم أكل أموال الغير.

أعجب الأمراء بما قال، حفظوا سره، ورفعوا مكانته، ثم اشتكوا إليه ظلم ملكهم وجوره، دارا بن دارا بن بهمن، وبينوا له أن من دناءة ملكهم، أنه يطأ الرجل وزوجته قبل أن يبنيا على بعضهما.

اشتد غضب سليمة، واستعر دمه من هذا الصنيع المقيت، الذي لا يفعله إلا سقيم حقير، وأمرٌ دنيء لا يليق بمن عرفهم من الرجال، والأمراء في كرمان، سألهم بحنق:

- لماذا لم تقتلوه؟

تلفت أحدهم يمنةً ويسرى ثم قال همسًا:

- إنه محاط بجواسيس وحراس، يتابع، ويراقب حتى أقرب قريب له بما فيهم زوجته وأبناءه، إنه يعيش في عزلة من شدة الخوف، وحين حاول أخاه اغتياله ذات رحلة صيد، نجى منها؛ سفه به على مرأى ومسمع الناس، وأمر بسحله في شوارع

كرمان، حتى يكون عبرة لمن تسول له نفسه انتزاع التاج عنه! لقد أشاع الخوف فينا.

حينها تأكد لي في غفوتي أن سليمة لن يدع هذه الفرصة تفوته، فهو من الدهاء بمكان سيجعلها موطئ حكم له، وتحقق ذلك حينما طلب سليمة منهم أن يمكنوه من مال وعتاد كثير، وأن يسمحوا له بانتخاب مقاتلين أشداء، يقاتل بهم، ليقتل لهم الملك الفاسد، الجائر عليهم. متمتًا في سره:

- يبدوا أن الملك لم يتأدب من خزاياه، وعلى خروج جيشه من عمان ذليلًا منكسرًا، اليوم سأكمل مشوار أبي، وأجعل من الملك الفاسق، عبرة لمن لا يعتبر، وعزاءً لأبي، أباهي به قومي وأخوتي، فلربما يعفو عني معن ومن معه.

بايعه الأمراء على قتل الملك، وأَعطوه العهد والمواثيق، وأغدقوا عليه المال والعتاد، طمعًا في الخلاص من ظلم الملك عليهم، وعلى أهليهم، وعلى من سفهه فيهم من الناس.

حينها استدعى سليمة القصص والروايات التي كنت أرويها له ولإخوته، أستمد منها العبر والدهاء، ومكر المحاربين في السلم،

وفي الحرب. وضع خطته الماكرة لمحاربة الملك الخبيث. طلب إلى أصدقائه من الأمراء، أن يخطبوا له زوجة من أكرم البيوت، يلبسونهما الحلي، ويضمخونهما بأجمل الطيب، ثم يعلنون زفافه عليها في محفل كبير، قبالة قلعة الملك دارا.

اعتمر سليمة جبة بيضاء، ولف رأسه بعمامة مزركشة، خرج وعروسه في محفل عظيم، ضربت فيها الدفوف، وقرعت الأجراس، وظهر الفرسان في ألبسة مزركشة بألوان قوس المطر، يحملون على الخيول صناديق ظنها الناظرون هدايا من الذهب والفضة والدمقس والحرير، خاصة أن سلاسل الذهب والفضة تدلت من أعناق الأفراس، منبئة عن غنى العروسين.

سمع الملك الدفوف تقرع، والأجراس تضرب، هرول إلى مشراف قلعته، أمعن النظر في المحفل، وقعت عينه على عين العريسين، بغضب وحدة، سأل وزيره:

- ما هذا يا أحمق؟!

باستغراب.. من هول المفاجأة قال:

- لا أدري.

- آتوني بالعريسين فورًا.

دخل الحجاب بهما على الملك متهاديان بين أيديهم، نظر إليهما، نظرة ازدراء، لم ينبس ببنت شفة، فقد شغف حبًا بالشاب الجميل، ذا الوجه المستوي، والجسم العربي القويم، انتبه سليمة إلى نظرات الاشتهاء، فراح يتحرك بين أيدي الحجاب في رقاعة وخنث، نظر إلى عيني الملك وقال بصوت أنثوي رقيق:

- دعهم أيها الملك العظيم يتركوني، فإن جسمي الحريري يتمزق.

استثار الملك من رقاعة سليمة، صاح على حجابه، أن يضعوا العروسة في غرفة لوحدها، وأن يطفئوا الشموع عليه وعلى سليمة.

وحين أغلقت الأبواب، وانتشر الظلام، بدأ سليمة في مداعبة الملك، وملاطفته كما تفعل الجواري مع ملاكها من الفحول، خمل الملك واسترخى جسده، مد يده إلى خاصرة سليمة، سحبه إلى صدره، قبل وجهه بشغف، حينها أدخل سليمة يده في جرابه، أخرج سكينة مسمومة، مرر أصابعه على شفتي الملك، ثم قبض على فمه، وبسرعة مذهلة غرس السكين في قلب الملك، تركه ينزف ويشخر بين يديه، ثم زاده طعنًا في خاصرته، وصدره حتى

رغى وسالت دموعه حين انتزعت منه الروح انتزاعًا، خرجت روحه متعفنة بخلقه السيئ، وعمله المحيق.

أنتزع درع الملك، لبسه، وتقلد سيفه، ثم وضع التاج على رأسه، ظلّ ساكنًا في مختصره حتى بزغ الفجر، فتح الباب، ونادى على الحاجب الأول، تقدم إليه وهو مرخيًا رأسه كعادة حجاب الملوك، وضع يده على فم الحاجب، طعنه بذات السكين في قلبه، وكذلك فعل في الحجاب الآخرين.

خلا له الطريق إلى بوابة القلعة، انطلق مسرعا نحوها، فتحها، انطلق من خلالها الفرسان إلى أنحاء القصر، قتلوا من تبقى من الحرس.

صعد على تبة مرتفعة في مشراف القلعة، أخذ رأس الملك ألقى به على الأرض، ثم أطلق صافرته إلى الفرسان أن ينتشروا في كل أنحاء المدينة لحراستها من كيد الكائدين وأتباع دارا اللعين.

سُرّ الأمراء ببطولة سليمة وجرأته، وحسن خديعته، وحين رأوه مستملكًا عليهم لا محالة، بايعوه ملكًا عليهم وعلى أهل كرمان، ثم أمروا خاصتهم، بربط أرجل الملك بحبل، وأمروا الصبية بجره

في شوارع كرمان حتى يراه كل من ذاق منه الأذى في النفس والعرض. حينها أنشد أحد الفرسان الأزديين:

فنحن سلبنا الملك من آل بهمن
على رغمهم قسرًا بجدع المناسم
وكان لنا الملك الأكاسر قلبهم
وكنا الذرى من مالك والقوادم
أليس الفتى الأزدي أسرى بغرمه
إلى بهمن بالموبقات الحواتم
ألم يخترمهم يوم بوس بسيفه
ويصرم رأس الأعوج المتفاقم
وأهدى بجيشه بعد ذلك يقوده
إلى الحرب أبناء الليوث الخضارم
أمد هناءة من أخيه بعسكر
سليمة فاثبتوا كأسد ضراغم

ثلاثـة آلاف كـرام فروعهـا

إلى القفــص صارت بالعتــاق الصلادم

فأسـكنهم كرمـان ليسـت بدارهـم

ثلاثــون محصنــا مــن ملــوك أكارم

إذا سـلت عنكـم سـليم بـن مالـك

روت رؤوسـكم عنهـا بفـرس أعاجم

فـلا أنتـم منهـم فيلـزم خدمكـم

ولا من شــريك فــي العــلا والجراثم

***

٢٠

خفَتَ صليل تعجبي من تمكين أمراء كرمان لأبني سليمة حكم بلادهم، ومبايعتهم له، عندما استعدت من ذاكرتي حقيقة الخوف المتأصل فيهم من المواجهات، و ما دفعهم لـصديقهم سليمة لمواجهة الملك إلا من خوف، وليس من محبة.

رأوا فيه شكيمة وصلابة، وعزم على دحر الظلم، كما ارتأوا فيمن حوله من شباب شدة في القول والفعل، لا بد أنهم أسرَّوا لبعضهم البعض بأمور بعد التخلص من الملك بهمن، لكن سليمة فاجأهم بفرسان الأزد الذين بعثهم له هناءة في جوف ليل، اختبأوا في ألبسة أهل كرمان، وحملوا صناديق مزركشة من الخارج، لكنها مملؤة بالنبل والسيوف والدروع.

حمدت الرب العظيم أنني غرست في أبنائي معرفة الأقوام وغدرات الرجال، وخاصة أمراء الساسان وملوكها ومرازبتها، طلبت إليهم دائمًا، الحذر منهم، في حاليّ السلم والحرب. ولم

يفت هذا على سليمة، فاستعان بأخيه النبيل، وخطط لمعركته تخطيطًا جميل.

ثم أحكم سيطرته على كرمان، ولم يلبث أن ضم إليها أراض في الخور والثغور المتاخمة، توسعت مملكته، وشاع فيها العدل والأمان. وتوقفت الحروب والكروب على أهلها، أحبه القوم أكثر مما أحبوا خاصتهم من أهل ساسان، وسعدت كثيرًا من معاضدة إخوته له، بمن فيهم أخوه معن الذي كان غاضبًا عليه.

اجتمعوا على الحب والوئام، رزقوا بالأبناء ما شاء لهم الرحمن. وسعدت أكثر حين رزق الملك سليمة بعشرة أولاد، شدّ بها عزيمته، وقوى مملكته، أسماهم: عبد، وحماية، وسعد، ورواحة، ومجاس، وكلاب أسد، وزاهر، وأسود، وعثمان.

كبر الأبناء في كرمان، تعلموا اللُّغة الفارسية، وأصابوا من خيراتها الكثير. وكغيرهم من بني آدم، شاع بينهم الخلاف، انتقل بعضهم إلى الحيرة عند أعمامه، وبعض ظلّ مع الملك سليمة في كرمان، تزوجوا فيها، واختلطوا بأهلها حتى اندمجت الدماء في الدماء، ولم يعد هناك فرق بين عربي وساساني مع مرور الأيام.

لكن الأمر تحول بعدما أسلم سليمة روحه، ولحق بنا في غفوة الرمان، سقط أبناؤه في النزق، وتمزقوا كل ممزق، دخل الناس بينهم، حاولوا الإصلاح، إلا أن طمع الدنيا والدناءة غلبت على بعضهم، تصارعوا، وتهالكوا حتى عاد المُلك إلى العجم، فمات بعضهم مقهورًا، وبعض هرب إلى أرض عمان، في حماية الأعمام والأقرباء.

***

صك على جادة سليمة

العوتبي الصحاري (الأنساب ص ٢٤٠)

ثم أن سليمة بن مالك، مات بأرض كرمان، فاختلف رأي ولده من بعده واضطرب أمرهم، ودخل الناس بينهم. وكان سبب زوال أمرهم، ورجوع الملك إلى العجم، حين وجدوا عليهم المدخل، لما كان من حسد بعضهم بعضا، فتغلبت عليهم الفرس، واستولوا على ملك أبيهم. فاضمحل أمرهم، وتفرقوا في أرض فارس وكرمان وجزائر فارس وأعمالها، وفرقة منهم توجهت إلى جبال عمان، فلحقت بأخوالهم ويروى بإخوانهم. فمن ولد سليمة: أصحاب جبال القفص من كرمان المنوجان، وأهل المربد، وبنو بلال، وآل الجلندي بن كركر. وآل الجلندين كركر والجلندي بن كركر هو جد الصفاق، ومن ولده ملوك هرموا إلى اليوم. وجمهور بني سليمة، بأرض فارس وكرمان، لهم بأس وشدة وعدد كثير وبعمان منهم الأقل.

٢١

لحق بي أخي الملك عمرو بن فهم في غفوة الرمان، وكنت قد أوصيت له بالحكم بعدي، تكريمًا له، وتشريفًا لأخٍ لحق بنا في عمان، حارب معنا حميةً للعرب، مع أن أبناءه هم الذين جاروا علينا في زمن مضى، قتلوا جارنا غدرا في كلب عقور، وكانت رعونتهم سببًا في هجرتي عن بلادي. وبقدر ما كرهت ذلك اليوم الذي حملت فيه أهلي وزادي مهاجرًا إلى أراضٍ ليس لي فيها أحد، متوجِّدًا من الحنين والشوق لكل حجر مشيت عليه أو رميت به في لعبة الأمثال، قدر ما أحببته، وشكرت الرب عليه، لأنه ساقني لنجدة العرب في عمان، وما حواليها من مدائن. ساقني إلى ملك التنوخ ثم ملك التنوخ وعمان.

رغم ما أصابني من زعل منهم، إلا إنها القربى التي لا تخلع من جلد، والرحم الذي لا ينزع من بطن، وكما قال الأجداد: «تحتاج إلى روحين لتعرف معنى الأخوة الحقيقية»، مهاجرة الإخوان مصيبة في حق النفس، والأهل والولد، ومهما بلغ الاختلاف، لا

يصل إلى حد الخلاف المفضي إلى قطيعة الرِّحم، ونحن معشر الأزد، لا نقبل الجفوة في أكثر من ثلاثة أيام، حينها تهدأ النفوس، وتطيب الخواطر، يبادئ الصلح من الصغير إلى الكبير، ولا اعتبار لمن هو المخطئ، ولا من هو المصيب!

وبعد أن ووري الثرى، استقبلت روح أخي في غفوة الرمان، وتولى جذيمة الأبرش حكم البلاد، وهو الأكبر، والعضيد الأشد، والمعين الأبرز، فارع الطول، الأشبه من أبنائي بي، عدا اللون الأبيض الذي غزا جسده، ولا مهانة لإخوته، الفارسان هناءة، وفراهيد على وجه الخصوص؛ وهما من قادا الميمنة والميسرة في معركة سلوت الكبرى، وأبليا فيها بلاءً حسنًا.

تميز جذيمة عن كثير بالحكمة والأناة، واشتهر بالمعرفة والخطابة والشعر الجزل، وكانت له معي صولات وجولات في جلّ المعارك والأحداث الكبيرة. وكان هو أول من لبس الحذاء من العرب، صنع لنفسه لبادات من ورق البردي، شدهم إلى قدمه بواسطة رباطه، ووضع لبادة أخرى على إبهاميه. أطلق على اختراعه «حذاء» كونه حذيَّ، أي قُص على الشكل، فلا تتأذى قدميه من البحص، والشوك المنتشر في الحيرة، أو في غابات عمان.

منذ طفولة، وجذيمة محب للابتكار، كان يجمع الأحجار، يبني بها حصون صغيرة، يدخل داخلها. ورأيته ذات نهار، يضع الحجر في قطعة من البز، يقذف بها العقرب أو الأفاعي المنتشرة في السراة.

حول معارفه إلى ما يفيده لمحاربة الأعداء الصائلين، وحين بلغ الحلم، طوّر مع بعض خواصه آلة المنجنيق، لإطلاق مقذوفات من الأحجار الصلدة إلى أهداف بعيدة، مكون من مقلاع، يضع الجند فيه المقذوف، يشدونه إلى الخلف ثم يطلقونه، فيطير المقذوف نحو الهدف، يدمره من مسافة بعيدة.

استخدم هذا السلاح المهيب في حروبه ضد الساسان، دك بها حصونهم ذات مخادعة، فتراجعوا القهقري، حين عرفوا أن الملك الجديد، ليس بالضعيف ولا الهين.

وبشجاعة جذيمة وإقدامه، توسعت المملكة، حتى بلغت أطراف اليمامة، وتحالف مع طسم وجديس، وضم إلى المملكة التي سميت في عصره بمملكة الحيرة، أطرافًا من اليمن وبلاد الشام، لتصبح أكبر وأعظم مملكة عرفها تاريخ العرب.

لا أخفيكم أني في حياتي الدنيوية رأيت رؤية لم أعلم بها أحدًا غيره، وقد تحققت بعدما دخلت غفوة الرمان بسنوات قليلة. فاستطاع جذيمة بناء المملكة العظمى، في أشهر قليلة، وبسرعة مذهلة، أغاضت أعداءه من الساسان والرومان، واستشعروا خطر الدولة العربية العظمى.

خاصة أن ابني جذيمة أدار البلاد بذكاء وحذاقة، فلم يتحجر لرأي أو عند فكر، أفاد من معارف «الأرمنيين» وأنظمتهم، وأساليبهم في تدبير شؤون المُلك. ولما كانت تجبى إليه من كل أرض في مملكته المتسعة، الأموال الكثيرة، وتفد إليه الوفود العليّة. صب اهتمامه على شؤون الرعية، وشجع الناس على تنمية التجارة والزراعة، وفتح الموانئ على البحر لتفد إلى المملكة من طريق الحرير وطريق البهارات، منتوجات الهند والسند والصين، ومن كلما لا يزرع في أرض العرب، أو ينتج فيها، أصبحت المبادلات التجارية في أوجها، وشرع في تصدير اللبان، والتمور إلى كل أصقاع الدنيا عبر السفن التي لا تلبث أن تتوقف في سواحل عمان.

ولم يخلّ استقرار المملكة العظمى من مناوشات في أطراف البلاد، تعارك مع طسم وجديس، لتأمين حدود البلاد، لكنه قفل

راجعًا عن أراضيهم، واكتفى بتأمين أطراف بلاده، ولمّا غزاها حسان ابن تبع، مالت نفسه إلى غزو إياد التي قطعت الطريق على سرية له، أصابت فيها متاعًا له، وأصنامًا زعموا أنَّها له، وَزَعَمُوا أنه كان يتفاءل بها، وهذا أمر قد شق عليّ كثيرًا، فنحن مسيحيون نسطوريون، لا علاقة لنا بالأوثان، وَلَرُبَّمَا كان له فيهم غاية، لم أفهمها وأنا في مبعدتي هذه، ولربما كانت الأصنام للزينة في تأسٍ لملوك الرومان! .. من يدري؟!

هابت منه إياد، طلبت إليه ألا يغزوهم، على أن ترد له متاعه، وما شاء من العطايا، قبل الاتفاق، وزاد عليه أن يبعثوا له بالولد اللخمي، عدي بن نصر، الذي اشتهر بين العرب بالوسامة والظرف، ليجعله خادمًا عنده.

قبلت أياد بشروطه، دفعت له بالمتاع، وبولدهم عدي بن نصر اللخمي، فجعل اللخمي على شرابه، وتمنيت أنَّ يبتعد ابني جذيمة عن الخمر الذي لم استسغه في حياتي، لأنه ليس من ديننا، ناهيك أنه مذهب للعقل، مسقط لهيبة الرجال، مع أنني كنت وأثق تمام الثقة، أنه لا ينادم، إلا أهل ثقة، ولا يشرب إلا أقل من مشربهم حتى لا يذهب عقله في حضرة عقولهم.

وفي ذات ليل ربيعي مطير، خرجت رقاش الباهية بجمالها، وجمال عينيها الأسودتان، إلى الوادي، تلعب وترقص مع صديقاتها، إذ برجل بهي الطلعة، عليه وسامة الرجال، عيناه حادتان، رأينه البنات، هربن عنه، إلا رقاش وقفت أمامه حين رأت فيه ما يسرها من الرجال، عرضت عليه نفسها، شريطة أن يخطبها من أخيها الملك، أقسم لها أنَّه لا يجرؤ على ذلك، وحين علمت أن اسمه عدي اللخمي، ويعمل سقاءً عند الملك، كادت له مكيدة، قالت له، اخطبني من الملك ذات سمر، صبَّ له خمرًا صرفًا، ولندمائه خمرًا ممزوجًا، حتَّى إذا بلغ مشربه، داخ رأسه، وذهب بعض عقله، اطلبني منه، وكرر عليه الطلب حتى يوافق، ثم استشهد عليه الحاضرين من القوم.

في صباح اليوم التالي، دخل عدي اللخمي إلى مجلس الملك جذيمة الذي أستنكر دخوله على هيبته دون استئذان، زجره بعنف، قائلا:

- لا يدخل العبيد على أسيادهم إلا بإذن

قبل عدي رأسه، وقال أيها الملك:

- اختصصتني لأختك رقاش، ولم تحررني بعد؟! إنه لشيء عجاب!

بهت الملك، وتسائل عن قصده، فابلغه بالقصة، فز الملك من مقعده، دخل على رقاش وهو يصيح:

خبريني رقاش لا تكذبيني
أبحرٍّ زنيتي أم بهجيني
أم بعبدٍ فأنت أهل لعبدِ
أم بدونٍ فأنت أهلٌ لدونِ

قالت بارتعاد:

- ورب موسى وعيسى، لم أرتكب فاحشة، فأنَا ابنة مالك، وأخت الفارس جذيمة، وليس هذا فينا، ولا في أهلنا. لكنّك زوّجتني امرأً عَرَبِيًّا حسيبًا نسيبًا، ولم تستَأمَرن في نفسي، واسأل القوم إن كانوا يصدقوك.

حينها هدأت نفس الملك، وذهب لاستقبال المباركين، دعا عدي إلى مجلسه، قربه، وجعله من ندمائه.

حبلت رقاش من عدي، مما اسعدني في غفوة الرمان، برغم الغصة التي راودتني كثيرًا حين اتهم جذيمة أخته رقاش، فهي ليست كمن عرف من النساء في سمَرهِ على المسكرات، إنَّها ابنتي، وأنا الرجل الصالح الأبي، الذي رباها ورباه على حسن السلوك وعلى الشرف الرفيع. نحن -معشر الأزد- لا نساوم على الشرف لأنَّه يمثل لنا الرجولة، والحياة الكريمة، ومن أجله تهون الأجسام، وتبلى الصدور، والعقول.

كانت رقاش مثل نبات الشوك، تنزف الأيدي التي تتعرض لها، حتى ولو على غفلة، فساق الرب إليها، عدي اللخمي، أحبته وتزوجته على شرع موسى وعيسى عليهما السلام، وولدت له ابنًا جميلًا أسمته عمرو، كانت تعطره، وتزينه كل يوم، ليبدي إلى مجلس خاله الملك جذيمة؛ فأحبه وجعله في ولده يلعب.

وفي سنةً خصبة، نزل فيها المطر بغزارة، بللت صحراء الحيرة، وما حولها، فبدى ربيعًا غير كل ربيع، مزدانًا بزهر الخزامى، وما انغمر في باطن الأرض من الكمأة التي غازلتها الشمس، ورطبتها للآكلين.

خرج الملك في حاشيه إلى الفياض التي غطت الصحراء، يجمعون الكمأة، كان الملك يدرب ابن أخته رقاش، عمرو بن عدي على جمع الكمأة وصيد الحبارى، يشوون لحوم الطير على الحطب الذي جمعته الحاشية من الأشجار المتيبسة في أطراف الصحراء، بينما الأطفال كانوا يجمعون الكمأة، يأكلونها، كان عمرو يرفع ما يجمع في خبائه، حتى إذا بلغ مجلس خاله الملك مد الخباء إليه، وقال شعرًا:

هَـذا جَنـاي وَخَيـارَهُ فيـه
وَكُلُّ جـانٍ يَـدَهُ إِلـى فيـه

سرّ بهذا الملك، وبعظيم أدب سبطه، وجمال طبعه، أخذه إلى صدره، قبله بين عينيه، ثم ألبسه طوقًا لم يلبسه أحدًا من قبل، حتى قيل إن عمرو بن عدي، هو أول من لبس طوقًا في العرب، وسمي عمرو ذو الطوق.

في صبيحة اليوم التالي، خرج عمرو بن عدي يلعب مع الصبية، حتى غابت الشمس، غاب معها عن الأعين، بحث الفرسان عنه في كل مكان وحين علم الملك باختفائه، أمر الفرسان أن يجوبوا الصحراء عرضًا وطولا، بحثًا عن سبطه، وأمر ببقر بطون الحيوانات

الضارية، ظلوّا على هذا عشر سنين، لكنهم لم يجدوا له أثر، أما أمه بكته كثيًرا حتى ابيضت عيناها من الحزن، ونحل جسمهاووهن.

أما أنا في غفوتي الرمانية فقد أطلعني الرب على كل ما وقع وكيف ومتى وأين! لكني لا أستطيع التواصل مع عالم الأحياء. نحن في غفوة الرمان، لا نخاف ولا نحزن، لكني رأيت حزن أمه وخاله الذي لم ينفك عن معاقرة الخمر، ومنادمة الخلق، دون انتقاء أو عناية، كان يرى عمرو يناديه في كل ليلة وكل حين، لكن لا يعرف من أين! ولا أين! وكيف السبيل إليه؟!

وبينا هو منادم خواصه في سكون الليل، أستأذن رجلان الدخول على الملك، وهما مالك وأخاه عقيل أبناء فارج بن قضاعة، أذن لهما، قال مالك:

إننا قدمنا من بادية الشام، ومعنا ما تحب وترغب، نقدمه إليك عربون محبة، على أن تكرمنا من خيرك وتجعلنا في ندمائك ما بقينا وبقيت.

رحب بهما الملك، ووعدهم بالوفاء إن صدقا، خرج عقيل على وجه السرعة، وعاد مصطحبًا شاب مشحوب اللون، ملبد

الشعر، إذ به عمرو بن عدي متهاديًا بين يديه، وقد كبر سنه، وتغيرت ملامحه، نظر الملك إلى الرجل، أعاد النظر إليه، فجأة، قفز من مجلسه، صاح فرحًا:

- هذا ابننا عمرو بن عدي

أصدقوني القول

هز عمرو بن عدي رأسه، قال :

- نعم أيها الملك، أنا عمرو بن عدي، وأمي رقاش .

فانكب عليه يقبله في وجهه وعنقه، شده إلى صدره ثم سأله :

ما بك يا عمرو وأين كنت كل هذا المدة ؟

رد بصوت خفيت منكسر:

- أنا بخير أيها الملك

أخذه إلى مجلسه، وراح يصيح بصوتٍ أجش مرحبًا بابني وغاية مرادي، ثم حمد الرب العظيم الذي أعاده إليه بعد فراق طال أمده وظن أنه لن يعود، وكاد أن يطير عقله وعقل أمه.

أشار الملك إلى الحاجب أن يأخذ مالك وعقيل إلى دار الضيافة، وأوعز إليه بإكرامهما أي إكرام، ويبلغهما أي مراد، على أن يلقاهما من قابل في مجلس الحكم.

وكعادته التي ورثها عني وعن جده فهم الدوسي، أوفى الملك بوعده، وهذا ما ورثنا كابرا عن كابر، وحين كنت في الدنيا، حرصت على تربية أبنائي على المثل والقيم العربية حتى انغرست فيهم وأصبحت جزء من كيانهم بل ولكأنها عضو في أجسادهم السامقة.

أصبح، مالك وعقيل نديمَان للملك، لا يبرحان مجلسه البتة، وقد خصهم بالكثير مما لم يخص به أحدًا من قبل، حدّ أني سمعت في غفوتي أن شاعرًا عَرَبِيًّا يدعى أبا خراش الهذلي قال:

لعمرك ما ملت كبيشة طلعتي
وإن ثوائي عندها لقليل
ألم تعلمي أن قد تفرق قبلنا
نديما صفاء مالك عمرو وعقيل

اصطحب الملك ابن أخته عمرو إلى أمه رقاش التي لم تلبث أن خرت باكية حين رأته، عرفته برغم ما أصابه من تغير في

جسمه، ووجهه. قبلته في وجهه ورأسه وجسمه، وراحت تشم صدره، وهي تبكي ولدي... ولدي... أين كنت؟ أين؟ بينما هو ظلّ ساكن، يتحرك بين يديها بثقل وتعب، قبل يدها، وقال:

- أنا بخير يا أماه.

ظلّ الإرهاق يصرع أنفاسه وكلماته، فقد كان في رحلة طويلة لم يعرف مبتدأها ولا منتهاها، وبعد أن أحس بدفء أمه، وهدأ روعه، طفق يبكي، ويحكي لها أنه وجد نفسه متسكعًا في الصحراء، جائعًا عطشان، حتى أوقفته امرأة، عرف لاحقًا أنَّها قينة الرجلين اللذين أخذاه إلى جذيمة:

- كانت القينة كريمة معي يا أماه، قدمت لي كراعًا، فأكلتها بنهم، ثم مددتُ يدي إليها طالبا مزيد من الأكل، صاح فيها مالك:

- تعطينه كراعًا، يا أم عمرو، فيطمع في الذراع!.

فناولتهما باقي اللحم، أكلا ثم شربا، حينها وجدت نفسي جائعًا تعبًا فقلت:

صـددت الـكاس عنّـا أم عمـرو

وكان الـكاس مجراهـا اليمينـا

ومـا شـر الثلاثـة أم عمـرو

بصاحبـك الـذي لا تصحبينـا

استغرب مالك وعقيل من براعتي في قول الشعر، سألاني:

- من أنت

قلت لهما:

- أنا عمرو بن عدي بن نصر اللخمي!

نهضا على عجل، أمسكاني من يَدَيَّ، ثم اصطحباني إلى خالي جذيمة، وأنا ما زلت يا أماه في تعبٍ وشدة.

أخذ نفسًا عميقًا ومال بجسمه عليها، ضمته إلى صدرها، وراحت تهدهده كطفلٍ صغير، تقبله تارة، تمسح بيدها على عينيه تارة أخرى، حتى نام في هدأة الليل ورائحة أمه التي فقد لسنين طوال. ظلت ليلتها تلك ساهرة عند رأسه، تغمس أصابعها في

شعره، تمسح على وجهه، ثم تنظر إلى النجوم المشعة، تشكر الرب العظيم أن أعاده إليها بعد طول غياب، وفقد أمل، خاصة إنها بلغت من العمر عِتِيًّا، وبلغ منها التعب أي مبلغ. ولم تلبث أن تتساءل في نفسها عمّا حدث لابنها؟ وعن سبب غيابه لسنوات! لكنها لا تريد أن تقض مضجعه، ظلت بجانبه حتى انبلج الصبح، وبان وجهه أكثر كقمرٍ منيرٍ، وبانت ملامح جسده الفارع، وعيناه الوسيعتين وقد استعاد بعض حيوية. رفعت رأسه، ضمته إلى صدرها، وهي تصيح:

- ابني حبيبي.. لقد عدت وعادت لي الحياة بعد أن شارفت على الموت من شدة الألم.

وضع يده على عينيها التي ابيضت من شدة الحزن، وخفت بريقها من كثر البكاء، تمتم:

- لا أعرف.. لكن حمدًا للرب العظيم أن عدت لأراك يا أماه.

حينها ناولت ما أعدته عاملتها له من حليبٍ مخفوقٍ وَأَدَام ولحم مقدد. بعد أن سد جوعه، ألبسته ثوبًا جديدًا، خضبت رأسه بدهن العود الهندي، ثم حملته إلى خاله الذي نهض بسرعة حين

رآه مقبلا تجاهه، قبله وداعبه قليلا، ثم أجلسه بجانبه، خلع طوق المُلك عن رأسه، وضعه على رأس عمرو وقال:

- لقد رأيته يوما ذهب وعليه طوق، فما ذهب عن عيني، ولا قلبي إلى الساعة.

وأردف قائلا يا رقاش:

- شبّ عمرو عن الطوق،

وقد ذهبت مثلًا إلى يومكم.

كنت أوفر حظًا من أهله وقبيلته، لأني كنت أراه من غفوة الرمان متنقلاً بين دويلات الجنّ الذين اختطفوه بأمر ملكتهم الحوراء، التي استطارت به، وتزوجته في حفل بهيج، دام سنوات، ولما قضت الملكة وطرها منه، أرسلته إلى أختها التي استبقته عندها لأشهر لكن أمهما العجزاء اختطفته منها وظلّ زوجًا لها لسنوات، كانت أمهما عجوز تجاوز عمرها الستمائة سنة، مصابة بهوس وجنون بعد احتراق زوجها ذات حفلة «حنيذ» في قرية تهاميه. ومازالت تمارس هوسها في إشباع شبقها من عمرو الذي

نحل جسمه وتهتكت عظامه. لكن الربّ العظيم نجاه منها حين سقطت على وجهها من ذات الجبل الذي كانت تزور فيه قبر زوجها، واحترقت موتًا، حينها تبخر سبطي عدي إلى سطح البر الذي وجدته عليها قينة مالك وعقيل.

***

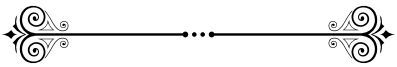

القرن الثالث للميلاد

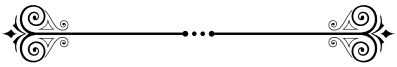

٢٢

كان ابني جذيمة الأبرش من أحكم الرجال وأشدهم شكيمة، له قوةٌ ومنعة، لا تحنيه حرب، أو تكسره غدره، وحين استعرَتْ الممالك المحاذية لمملكة تنوخ وعمان، كان لا بد من أن يدفع عنها الخطر الداهم، خصوصًا أن الشاه الساساني «أردشير الأول» غزا بلاد ما بين النهرين، أسقط الإمبراطورية البارثية، واتخذ لنفسه لقب شاه إنشاه إيران، وزوجته اتخذت لقبا «أدهور أناهِد» أي ملكة الملكات، وكان ذلك في آخر سنوات ملكي. كنت حينها متيقظًا لهم، وأعددت ما لزم من العدة والعتاد، لأي مباغتة منه، لأن الطمع ظهر في أعماله، وبرز في مسماه.

زاد الخطر وتفاقم إبان عهد أخي عمرو، لما رآه أردشير من ضعف بدا يظهر على ملك الدولة العربية التي قامت على أسس قوية، قبل إمبراطوريته بسنوات. ولما تولى الحكم ابني جذيمة الأبرش، دوام على استخبار طموحات الشاه إنشاه، وتأكد له أنه أكبر خطر على استقرار مملكة التنوخ وعمان، يهدد كينونتها،

خاصة أن أبناء عمومتنا الأزديون من الغساسنة الذين أسسوا مملكة الشام التدمرية، أعلنوا تحالفهم مع الإمبراطور الروماني لمقاتلة الساسانيين وحلفائهم، مما زاد في ضغائن الفرس على العرب، لا أخفيكم أن الغساسنة هداهم الرب العظيم خالفونا في منهجنا الوحدوي الذي أسسنا له، ورفضوا الانضمام والتحالف معنا في دولة عربية عظمى تضاهي إمبراطورية البارثيين، وإمبراطورية الرومان مجتمعتين، كانت أطماع ملوكها الشخصية غالبة على مصلحة العرب، فكان للتفرد طغيان، بل أنهم زادوا واستعملوا الرومانيين ضد استقرارنا، لكنني كنت أحكم وأضبط للنفس حتى لا ينتهي بنا المطاف إلى أن نكون حطبًا للساسان والرومان.

وحين اشتعلت الحرب واستعرت بين الساسان والرومان، استغل الملك أذينة العمليقي الوضع، فانسلخ عن لواء إمبراطورية الرومان، التي صارت في حيص بيص، مما حصل بينهم من هرج ومرج، انطلقت شرارتها بانتحار «جورديان الأول» حزنًا على ابنه، وخلال سنوات اغتيل الإمبراطور الروماني جورديان الثالث، فخلفه فيليب العربي، الذي سمي بالعربي، لأنَّه ولد في شهبا، وحكم الولاية العربية الرومانية، ولم يدم حكمه إلا أَشْهُرًا قليلة، مع أنَّه عقد الصلح مع الساسانيين، واحتفل بالألف الأولى لقيام

مدينة روما، لكنه اغتيل ذات تمرد في إيطاليا التي زحف إليها على جيش عرمرم، ورغم أن فيليب نجح في مباغتتهم في فيرونا، وأنتصر في معاركه عليهم، إلا أنهم ظفروا به وقتلوه شر قتلة. فاستمر الهرج والمرج، فقتل الإمبراطور أمليان الذي ولد ونشأ جل حياته في جرب بتونس.

وكنت رأيت انطلاقة الفوضى في بلاد الرومان وإرهاصاتها، في حياتي الدنيوية، فما كانت لتهدأ شهرًا حتى تفور سنة، إما باغتيال إمبراطور، أو بثورة في أحد أطرافها، إذ لم تكن الإمبراطورية منسجمة، لاختلاف لغاتها وثقافاتها وجذورها الأثنية. وكانت تدمر إحدى تلك الولايات التي تمردت، وقد كان ملكها أذينة العمليقي، من عمال العماليق الذين هاجروا من تهامة إلى الشام، وقد كان نديدي عند نشأة مملكته. وحين أعلن تمرده على لواء الإمبراطورية الرومانية قتلوه، فملك من بعده ابنه عمرو الظرّب، وهو والد نائلة الإمبراطورة الخبيثة التي اشتهرت بمسمى «الزباء».

لم يلبث والد الزباء، الملك عمرو الظرب من موالاة الساسان الذين عاونوه في فرض حكمه على سوريا وسائر آسيا الرومانية، وظهرت أطماعه التوسعية في أفعاله وأقواله، فهاب ابني جذيمة من أطماعه التوسعية باتجاه الغرب المحاذي لمملكتنا، فأرسل

إلى عمرو الظرب أن مملكتكم الصغيرة ستكون لحمة يمضغها الساسان والرومان، وأن توسعهم سيكون وبالا عليهم وعلى مملكة التنوخ وعمان الكبرى، واقترح عليه أن تنظم مملكة تدمر في لواء مملكة التنوخ وعمان، لتتسع المملكة العربية العظمى، يشتد أزرها بتضافر جنودها الأشداء.

وكأني بابني جذيمة علم نوايا الملك عمرو الظرب مسبقًا، فلم يلبث أن أعد العدة لأي مباغته منهم، فرسم الحدود، ووضع المخبرين في كل مكان، ولما جاءه خبر عزم الملك عمرو الظرب بإيعاز من الساسان غزو مملكة التنوخ وعمان، قال لوزرائه، ألم أنبئكم بهذا الذي باع كرامته للساسان، هذا الذي سيلعنه التأريخ ما دمت الدنيا، لكن أعلموا أنه قد أساء الاختيار، ولم تلبث المعركة أن بدأت حتى انتهت بانتصار جيش مملكة التنوخ وعمان، وقتل عميل الساسان عمرو الظرب، وقد كانت معركة سريعة، أهين فيها عسكر الغساسنة والفرسان المنضوين معهم من الساسان.

تولت الملك من بعده، ابنته نائلة العمليقي، المشهورة بالزباء، وكانت بِكرًا في مقتبل عمرها، وقيل لي أنها ذات حسن وجمال منذ أن كانت صغيرة، وقيل إنه لا يشبهها أحدا في النساء البتة.

وحين طار خبرها عند الرومان، طمعوا فيها، وقرروا إعادة تدمر إلى لوائهم، وصل الخبر إلى الملك جذيمة، فعرض عليها ما كنت عرضته على أبيها وجدها العمليقي ولم يستجيبا له، عرض عليها الانضمام إلى مملكة التنوخ وعمان، إلَّا أنها رفضت، فقد كانت محترقة على دم أبيها وعمها الذين قتلهما ابني الملك جذيمة في المعركة السريعة. وكانت قد عقدت النية على مقاتلة جذيمة انتقاما لأبيها وعمها، لكن أختها «زبيبة» منعتها من إظهار نية الحرب، لأن مملكة التنوخ وعمان مملكة قوية، وقائدها جذيمة الأبرش، ذو قوة وبأس، لا يرحم عدو رغم رهافة قلبه وشاعريته.

كانت أخت الملكة «زبيبة» معروفة بحكمتها وسداد رأيها، قالت، يا نائلة:

- إنمّا هو يوم له ما بعده، والحرب سجال.

وأردفت :

- المكر والحيلة، خير لك يا زباء.

أسرت إلى أختها بمكيدة، وقع في شراكها ابني جذيمة. أرسلت إليه وهو في «بقة»، خطبته إلى نفسها، قالت في رسالة أرسلتها إليه:

- إن ملك النساء قُبح في السماع، وضعفٌ في السلطان، ولم أجد لملكي ولنفسي كفؤًا غيرك من الرجال، ولتكن مملكتنا واحدة، وفراشنا واحد.

وبكل أسف أن ابني الملك العظيم وصاحب المكائد التي أسقطت الأعداء، سقط من فوره وباتت في قلبه وعشق تملك عقله، لما شاع عن جمالها، الجمال اللخمي، والبياض الشامي، والأنوثة الممتشقة لكل القلوب.

حينها استدعى الملك جذيمة خواصه، استشارهم في الأمر، ولما رأوا في عينيه من إشعاع منفرط عن حب وقر في قلبه وتملك عليه مشاعره وعقله، أجمعوا له بالقبول، إلا ابن جاريته، «قصير بن سعد»، فقد رفض، وقد عرف عنه حكمته وبُعد نظره، قال يا أيها الملك:

- إنها المكيدة.

لكن عمرو بن عدي، رمق قصير بن سعد بعين شرر، وقال:

- أيها الملك، إنهم قومي من لخم، إن رأوك، عاضدوك.

حينها استخلف جذيمة، عمرو بن عدي إلى حين عودته عريسًا مبتهجًا بزوجته، ذات الحسن والجمال.

ركب خيله الشهيرة باسم «العصا» التي لا تسبقها خيل من شدةٍ فيها وخفة، حمل معه الهدايا من الدمقس والحرير والذهب واللؤلؤ والمرجان، ولما استقبلته الكتائب وقفوا دونه، قال ابني جذيمة

- ما الرأي يا قصير؟

قال قصير وهو يمسح العرق المتصبب على جبينه

- تركنا الرأي ببقة.

لا أخفيكم أنني أسفت للقرار الأرعن من جذيمة وخواصه، خاصة أنني كنت حريصًا على تعليمه منذ الصغر حكايات الأقدمين، لاستدرار العبر منها، وأذكر أنّي كنت حريصًا أن أكرر عليه وإخوته قصص مكر النساء، خاصة أولئك اللائي يصلن إلى سدة الحكم، وكررت على مسامعهم قصة «نيرون» إمبراطور روما القديمة التي جرت قبيل سفري إلى الدنيا بمئة عام تقريبًا. ذكرت لهم أن نيرون الذي شاعت مصائبه، كان ابنًا بالتبني للإمبراطور الروماني

«كلوديوس»، وكانت أحداثها بعدما استقرت الإمبراطورية الجديدة بفضل الإمبراطور «أوغسطس»، استطاعت أم نيرون «أغريبينا» بنسجها للمكيدة تلو الأخرى، حتى قبل الإمبراطور «كلوديوس» إبعاد ابنه الحقيقي عن الحكم، وتسييره إلى «نيرون». شب نيرون مثل أمه على نسج المكايد، بما فيها مكيدة قتل أمه إبان حكمه، وقتل زوجته أيضا «أوكتافيا» من أجل عشيقته التي نجحت في غزل المكايد عليه. دبرت التدابير وانغمس نيرون في المجون، والعزف على القيثار، تاركًا الحكم لعشيقته «بوبيه» حتى وصل الحال به إلى إشعال الحرائق في روما التي قتل فيها خلقا كثيرا في عشرة أحياء من أصل أربعة عشر حَيًّا في روما. بينما ظلّ هو جالسًا على برج ينظر إلى الحرائق المشتعلة ويغني من أشعار «هوميروس» التي يصف فيها حريق طرواده.

كنت حريصًا أن أقص على أبنائي قصص المكر والخيانة حتى لا تنطلي عليهم مكيدة، وبالرغم أن جذيمة كان من الملوك الأشداء، العقلاء، غير أنه سقط في «العلقمين»، أولعَ بالخمر وعشق النساء، وقد جاء في سفر يشوع بن سيراخ «الخمر والنساء تجعلان العقلاء أهل ردة».

سقط في شراك الملكة الزباء، التي أدخلته حصنها وهو في قمة التباهي بنفسه وبما حمل من هدايا على عشرات من الخيول، وظلّ العبيد ينزلون في الهدايا لساعة من نهار، لم يدركهم أحد من أهل المدينة ولا حرسها، راح قَصِير يتحسس، علم أن هناك مكيدة لكن لم يعرف أين وكيف؟!، انتظر قليلاً وهو على الخيل، وكأني لمحت ابني جذيمة ينتبه لمكيدة، أخرج رأسه من باب الحصن، وصاح :

- ما ضلّ من تجري به العصا.

مضت اللحظات سريعة، فجأة، خرج الناس من كل حدب وصوب، يصيحون باسم الملكة الزباء. فهم قصير من صرخة الملك جذيمة أنه يطلبه الاستنجاد بقومه، فضرب بطن الخيل وقفل هاربًا إلى قومه.

في داخل الحصن، كانت الزباء مستلقية على السرير حينها أدخل إليها جذيمة وهو بين مصدق ومكذب، تارةً يحسبها مكيدة، وتارة أخرى، يحسب أنه شغفها حبًا به، نظر إلى طرفي السرير، وجد الجواري الحسان، يتلاعبن بشعورهن، وينظرن إليه بشهوة.

رحبت به الزباء وهي تتلوى على السرير، قالت بصوت خفيت:

- هيت لك أيها الملك العظيم..

ثم أمرت الجواري أن يقدمن له أحسن أنواع النبيذ المعد مسبقًا، شرب الكأس، ولم يلبث أن شعر بالدوار سريعًا، فكشفت له عن ساقها، طار بشبقه، وراح يدلق الكأس على جسمه وجسمها، ويلعقه من على صدرها حتى ضعفت همته من أثر السم المخلوط في النبيذ.

ولما تأكد لها أن السم قد استشرى في دمه، طلبت من الحجاب أن يوثقوه بالحبال ويجلسوه على نطع ، ثم جيء لها بطستٍ من ذهب، تقدمت إليه وهي تنظر إلى عينيه باحتقار، أخذت الموس وقطعت راهشة، وحين بدأ ينزف ، باعدت بين فخذيها، وقفت على رأسه عارية، وقد ضفرت شعر عورتها ، قالت:

- يا جذيمة أدأب عروس ترى؟.

تأتأ مستهترًا ومتأففًا مما رأى، تم قال:

- بلغ المدى، وجفّ الثرى، وأمر غدرٍ أرى.

قهقهت بصوت عال ثم قالت :

- أما وإلهي، ما بنا من عدم مواس، ولا قلّة أواس، ولكنها شيمة من أناس.

حينها قطعت بقية راهشة، سال الدم مهراقًا في الطست، بينما هي تبصق عليه، وتصيح على الجواري، قالت :

- لا تدعن دمه يسقط على الأرض، فدم الملوك شفاء من داء الكلب.

ولما سقطت إحدى يديه، انتشر الدم خارج الطست، صاحت عليهن :

- لا تضيعن دم الملك.

رد بصوت منكسر، وقد كانت روحه تقترب مني في غفوة الرمان:

- دعوا دمًا ضيّعه أهله.

لم أستطع حبس دموعي، ولا كتم أنيني، وقد شعرت وأنا في هذا البرزخ البعيد... البعيد، أنني قد غرقت في بحر البكاء، كيف استطاعت الزباء من قتل جذيمة الذي كان أقوى الفرسان وأشجعهم، قاتل جيوشًا، وأهلك أقوامًا، ووحد دولًا لكنه انتهى على طستٍ من ذهب. يا للعار!

***

٢٣

دخل قصير بن سعد إلى «بقة» يصيح بأعلى صوته:

- يا عمرو بن عدي، يا عمرو، يا ملك التنوخ وعمان، يا ملك العرب... لقد تآمرت قبيلتك لخم على خالك الملك جذيمة، لقد غدرت الزباء به في مخدعها.

وأردف متحسرًا يجرجر الندم من قاع صدره:

- لقد تفردتُ بنصحه ألا يذهب إلى تلك المأفونة، لكن ليس لي مسمع عندكم.

نهض نائب الملك عمرو بن عدي من فوره، أخذ بتلابيب قصير وهو يصيح في وجهه:

- ماذا... أفصح القول وأصدقني يا قصير».

وأردف قائلا وهو يهزه هزًا عنيفًا:

- أقلت إن الزباء قتلت خالي الملك جذيمة!؟.

رد قصير وهو يفرك عينيه من شدة البكاء:

- نعم، نعم أيها الملك، هذا ما شاع في تدمر كلها، سمعتهم يصفقون فرحين، وينشدون للزباء أناشيد النصر على جذيمة، لم ألبث أن ركبتُ «العصا» الذي ترك عندي، وجئت إليكم مسرعًا، لكن الفرس ماتت في الطريق، دفنتها حيث ماتت، وأكملت الطريق إليكم على قدمي الحافيتين، نعم.. لقد رأيت بأم عيني الاحتفالات في شوارع وأزقة تدمر.

وحين خرجت عليهم الزباء، ضاحكةٌ مستبشرة، قالت:

- لقد فصدت دم المجرم، وضعته في طستٍ من ذهب، ودم الملوك دواء من مرض الكلب، فمن به مرض فليتقدم.

صفق الرجال وتراقصت النساء، وعلى وجيههم علت الأفراح، علمت أنها غدرت بالملك جذيمة.

حينها طلب الملك الجديد عمرو بن عدي من خاصته، أن يجمعوا الفرسان، يجهزوا السيوف والأكنان، لغزو بلاد الزباء، قال، أحدهم:

- أيها الملك، إنهم قومك من لخم،

صرخ في وجهه معاتبًا:

- لو كانوا قومي الذين أحب، ما قتلوا خالي الذي أحبني، ورباني.

وبينما كان الخواص يجهزون الجيوش في الحيرة، ويوزعون الأعمال على الفرسان، كان كاهن الزباء يروح ويجيء داخل حصنها الكبير ذو الأحجار الرمادية، والأبواب المصمتة، طرق على ثكنة الحاجب، طلب أن يفسح له لمقابلة الملكة على عجل، انطلق الحاجب إلى الملكة وقد كانت تجلس حول الطست الغارق بدم الملك جذيمة، تحتسي النبيذ مع وصيفاتها العاريات، تداعب قمم صدورهن وعوارتهن بكلتا يديها، وهنّ يتضاحكن من شدة الانتشاء.

دخل الكاهن سيخان وهو يشد في شعر ذقنه البيضاء المنسدلة حتى صدره، وقد بدى على وجهه اصفرار، ويداه ترتعشان، وقف قبالتها متحرجًا من الكلام، صاحت بغضب:

- هيّا قل ما عندك ودعنا نكمل السمر واللعب مع الغواني .

قال :

- أيها الملكة...

حينها أشارت إلى النساء أن يخرجن، ثم قالت:

- هاتِ ما عندك يا سيخان.

قال:

- إني رأيت سيف عمرو بن عدي يمضي على جسدك، يعذبك عذابًا لم يعرفه أحد من قبل، يقطع عنك الأعضاء تلو بعض، ثم ...

فزت من فورها، وصاحت بأعلى صوتها المبحوح:

- ماذا ... ماذا تقول أيها المجنون!؟

- إن كهانتي فيما قلت لك أيتها الملكة .. ثم راح يحدثها بتفاصيل ما تنبأ به من مقتلها على يد الملك اللخمي الجديد،

سألت :

- أهو ابن عم إذن؟

- نعم، ولكنه لن يترك دم خاله جذيمة، فقد كان له بمثابة الخال والأب والعم، رباه من صغره، وشد من أزره، وأورثه الملك من بعده، وأصبح أزديًا أكثر من الأزد، ومن أحتفظ لأهله ببعض ود.

نظرت الزباء إلى الكاهن وهي مرتعبة حد الموت، قامت من مقعدها، تروح وتجيء في الحصن، تضرب بكفٍ كف، تقف قليلاً، ثم تجلس... تفكر... وتتأمل، وبعد هنيهة قالت:

- يا سيخان، أجمع لي كل كهنة المدينة حتى أتحقق من كهانتك، لو كنت كاذبًا ضربت عنقك وقطعتك إربًا كما وصفت.

اجتمع الكهنة بين يدي الملكة، طلبت أن يأتي إلى عرشها الباذخ باللون الأحمر، واحدًا تلو الآخر، سألت كل واحدٍ منهم على حدة: عن كهانته، أتفق الجميع على ما زعم به الكاهن سيخان، صاحت بهم جميعًا،

- أغربوا عن وجهي الآن .

هرول الجميع رجوعًا على الخلف، إلا الكاهن سيخان الذي اقترب منها، رفع عصاه إلى السماء، تمتم، ثم قال:

- أيتها الملكة، إن عمر بن عدي ملك ذو جبروت وقسوة لم تشهد الحيرة مثله، لا يهاب إنسًا أو جنًا، فقد تدرب وتعلم عند الجُّن الذين اختطفوه لسنين، تعلم منهم القوة والبأس، وتعلم المكر والخداع، وقد كان خاله جذيمة يعتمد عليه في الحروب التي خاضها ضد الساسان، وشارك معه في الحرب على جدكِ أذينة في مقتبل عمره، بل إنه كان من ضمن الأربعة الذين هجموا على أبيك وقطعوه إربًا.

انتفضت الزباء، وصاحت على الحرس، أأتوني الآن بمصورٍ حاذق، هرول الحرس في شوارع المدينة وأحيائها يطرقون الأبواب، ويطوفون في الأسواق، يصيحون: «يا أهل تدمر، يا أهل تدمر، الملكة الزباء تريد مصورًا حاذقًا، فمن يأنس في نفسه الكفاءة، فليأت إلى الحصن على الفور».

لم يمض من النهار إلا سويعات حتى أجتمع خلق كثير قبالة الحصن، حينها طلبت الملكة من الكهنة اختبارهم، واختيار خيارهم وأحسن المصورين فيهم.

في اليوم التالي جيء إليها بشابٍ أنيق، طويل القامة، واسع العينين، مرتديًا ثيابًا رثة، بدى عليه الفقر والعوز، قال لها، سيخان،

- لقد وجدنا في هذا اللخمي براعة ليس لها مثيل في تدمر.

نظرت إلى الشاب، سألت: عن اسمه، قال، وهو يرتعد:

- مالك اللخمي.

فرحت به كثيرًا، أجلسته بجانبها، وطلبت من الساقية أن تصبّ له من أعتق النبيذ وأحسنه، وأشارت إلى الحضور أن ينصرفوا! قامت من عرشها، وضعت أمامه صحنا من الفواكه الشامية، من التفاح والبرتقال، والعنب! قالت وهي تنظر في عينيه الساهيتان،

- كُل فأنت في حضرة الزباء، ملكة تدمر. لا تخف...

وأردفت قائلة:

- إن قضيت المهمة التي سأوكلك بها بنجاح، ستكون زوجًا لي أنا الملكة الزباء التي تمناها ملوك الأرض.

شعّت عينيه من الصدمة... والفرح في آن! تمتم محاولا أن يتكلم، حينها وضعت أصبعها على شفتيه حتى كاد أن يدوخ من الخجل.

- يا مالك أريد منك أن تتخفى، تدخل إلى الحيرة بأي طريقةٍ كانت، ترسم لي ملكهم عمرو بن عدي على كل شكل هو فيه، قائمًا، وقاعدًا، ومتنكرًا بلثام أبيض، وأسود، ترسم لي ذات طوله، وشكل يده، وسيفه حتى إذا رأيته في أي شكل كان أعرفه فورًا.

خرج الشاب فرحًا بما آتاه الرب من مُلك عظيم، واعدًا الملكة بما يكشف ستر عمرو بن عدي في كل أحواله.

طلبت من الحاجب، أن يأت لها بعمال الحصن، طلبت إليهم، أن يغيروا معالم الحصن، ويحفروا فيه سراديب جديدة، لها أبواب عديدة، ودهاليز ملتوية ومظلمة، لا يعلم بها أحد غيرها ووصيفتها سميّة، حتى أنها غمت الأمر عن أختها وعن الكاهن سيخان، تمتمت... حتى لا يستطيع أن يصل إليَّ عمرو بن عدي وقومه لو قُدر لهم أن يقتحموا هذا الحصن المنيع، ولن يعرف أحد من أي مهربٍ سأخرج لأنجو بنفسي، وما بعديَ الطوفان.

شعرت في غفوة الرمان بوخز شديد في صدري، لأن الأمر خطير، قد تنجح خطتها، وتُسقط في شرَكها سبطي وخاصته، فهي لا محالة ذات مكائد ومصائد! استطاعت أن تغوي الملك الداهية

جذيمة فلربما تستطيع أن تنتصر على الملك الشاب عمرو. لما لا!؟، ولو حصل ذلك، لا انتهت المملكة التي بنيت على هياكل الساسان ومن والاهم من الخونة العرب.

وطلبتُ من الرب العظيم، أن يجعلني في رؤيا من رؤى سبطي الملك عمرو بن عدي، أبلغه فيها بأمر الزباء .... وما خططت له، حتى يتنبه لها ولمصورها ثم يظفر بها ويملك ملكها. الأمر الذي - في ظني - لن يتحقق له دون خدعة محكمة؛ والحرب خدعة. فكما فعلت الزباء وخططت على ابني جذيمة وانتزعت منه روحه السامقة، لا بد لسبطي أن ينتقم منها، يقطعها إربًا.

في هذه الأثناء سمعت قصير بن سعد، يهمس في أذن الملك الذي أعلن ملكه للتو، قال بصوت خفيت

- أجدع أنفي حتى أفر منك إلى الزباء، ألجأ إليها، حتى تثق بي، وأعلم من أمرها ما استتر،

- ما الأمر يا قصير. سأل الملك

- الخديعة الخديعة.

ابتسم الملك، وأمر الجلاد أن يجدع أنف قصيرا على مهل وفي مجمع من الناس، يلقي عليهم خطابًا يقول فيه، أن قصيرًا قد خان الملك جذيمة وقد قرر الملك الجديد أن يجدع أنفه عقابًا له وردعًا لأمثاله، ثم أوصى الجلاد أن يسمح لقصير أن يحتسي من الخمر ما يفقده وعيه، وأن يحد السيف حتى لا يؤذيه.

في اليوم التالي انطلق قصير بفرسه إلى تدمر، وصاح قبالة حصن الزباء، أيها الملكة:

- إن الملك عمرو بن عدي، زعم أني قد خنت خاله الملك جذيمة فجدع ئأنفي وتوعد قتلي قطعة قطعة.

أمرت الملك الزباء بإدخاله عليها محروسًا، ولما رأت أنفه مجدوعًا وقد تمثل الخوف والارتباك. قالت له:

- من أنت.

قال وهو يتمثل الخوف :

- أنا قصير الذي رافق خصمك جذيمة، فعلم الملك بأمر كتماني سر مقتله على يديك حتى لا ينتقم منك كما فعل بأبيك هو

وخاله، فأمر بجدع أنفي وقتلي، لكني استطعت الفرار منه بعدما جدع أنفي. قالت الملكة:

- أنت في ملكي، وفي حمايتي، لا تخف، فالجيش مستعد له، وقد تحصنوا في أماكن لا يعلمها أحد، وسيباغتونه إذا دخل بجيشه. وحين طال الحديث بينهما، أعجبت به وبحزمه وحذقه، ومعرفته القوية بشؤون الملك والملوك.

ولما تيقن من ثقتها به قال لها :

- لدي من الأموال في الحيرة ما يغنيك ويزيد في ملكك وقوتك.

ثم طلب منها تجهيزه بقافلة من البغال والحمير، حتى يتمكن من حملها عليهم.

تخفى قصير عن مرافقيه حتى وصل إلى الملك عمرو، طلب إليه أن يزوده بالبز والحرير والعطور والتحف، حملها على البغال والحمير، وجاء بها إلى الملكة التي أعجبت بها أيّما إعجاب، وراحت تقيس هذا، وتتعطر بذاك، تلمس البز هذا، وتسأل جواريها عن الأليق لها والأجمل عليها.

عاد إليها قصير وطلب منها تزويده بمزيد من البغال والحمير وبعض العمال حتى يحمل ما تبقى من مال وحلال يعد أضعاف أضعاف ما جلب لها في المرة السابقة.

طلب قصير من عمال الزباء البقاء على بوابة المدينة، ودخل متسللا، أبلغ الملك عمرو بحيلته الثانية، وطلب منه أن يهيئ له من ثقات الأصحاب والجند البواسل، جعل كل جنديين منهم في غرارة ، وهو صندوق اخترعه قصير بن سعد لهذا الغرض، أعلمهم بأن يخرجوا منها قبالة حصن الملكة الزباء عندما ينفخ على البوق، وإذا خرجوا يصيحون على الناس وعلى الجند، يقتلون من يعترضهم، أو يحاول منعهم من اقتحام الحصن. وإذا اقتحموه، يشير إلى الملك عمرو بن عدي فيخرج من غرارة خاصة به، يدخل إلى سربها مع بعض الرجال الأشداء والخواص الأقوياء.

أرسل قصير عددًا من الفرسان إلى أطراف بقة لقتل عمال الملكة الذين جلبهم معه، وعرج من طريق آخر وخلفه قافلة من الخيل، عليها صناديق من الذهب والفضة، تعمد أن يترك بعض المجوهرات متدلية من الصناديق، لتتلألأ من مبعدة. تجمع أهل تدمر حول القافلة، بينا الخيل والبغال التي حملت الغرارات ألتفت إلى خلف حصن، ظلّ الناس حول القافلة يتراقصون من

الفرح، وقصير لم يلبث أن رمي لهم بعض النقود والجواهر، تكدس الناس بعضهم فوق بعض، ودخل معهم الجند وحجاب الحصن، حينها نفخ على البوق، وصاح في الناس، إذا وصلت للنفخة العشرين على البوق عليكم أن تتوقفوا عن جمع الذهب وإلا أبلغت الملكة الزباء. وظلّ ينفخ على البوق ويتباطأ في النفخ حتى يخرج الفرسان من الغرارت، ويقتحموا الحصن.

خرج الملك عمرو بن عدي من غرارته، واقتحم وجنوده الحصن، متنكرًا في إزار أبيض، وعليه خوذة سوداء مصنوعة من ذات الحديد الذي يعتمره جند الملكة الزباء، فجأة، خرجت الملكة على أصوات البوق وأهازيج الناس، معتمرة ثوبًا أحمر، ووشاحًا أسود، دفعها عمرو بن عدي من خلفها، لزمها من خاصرتها، صاحت بخوف:

- من أنت

التفتت، فالتقت عيناها بعينيه، عرفته على الفور من التصاوير التي جمعت لها، في كل أحواله، وأشكاله، ملصت من بين يديه وانطلقت خلال السراديب، رفع سيفه البهلول، وانطلق خلفها، وهو يصيح :

- دم الملك جذيمة... دم الملك جذيمة.

دخلت من السراديب التي بنت وهو خلفها يصيح لا محالة إني قاتلك أيتها الخبيثة! ولما اقترب منها، فتحت خاتمها ومصت السم الذي دسته فيه، وصاحت في وجهه :

- بيدي لا بيد عمرو ..

هرول إليها وهو يصيح بأعلى صوته، تلقاها بسيفه، ضربها في رأسها وجسدها حتى سقطت صريعه تنزف دماء الغدر والخيانة.

خرج إلى قومه، شاهرًا سيفه، والدماء لازالت تقطر على جانبيه، صدح بأعلى صوته:

- لقد أخذت بثأر خالي الملك جذيمة من الزباء.

ثم قال:

- يا قصير بن سعد، اجمع لي قومي اللخميين، والقبائل كافة.

وحين تحلق الناس حوله، اجتمعوا في جماعات، هتفوا باسم الملك عمرو، قام فيهم خطيبًا:

- أيها الناس، يا آل لخم، إني أنا عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة اللخمي، ورثت ملك التنوخ عن خالي الملك جذيمة الأزدي الذي غدرت به ملكتكم التي صرعت هذه الساعة، وحزت على ملك تدمر، وإني أعلن لكم من هذا الحصن، أنني قد ضممت تدمر إلى مملكة التنوخ، معلنا نهاية العماليق فيها، وسأقوم على حمايتها من الفرس والروم، ومن سالمنا سالمناه، ومن عادانا ضربنا عنقه».

سلم الجميع له بالأمر، وتقاطروا أفواجًا يرحبون به ملكًا جديدًا عليهم.

حينها نادى على خواصه ومستشاريه، طلب إليهم أن يتتبعوا حاجات الناس في تدمر، خاصة الأرامل والأيتام منهم ومن بلغ من العمر مبلغًا أقعده عن العمل، وأعلن حمايته لدور العبادة، وأتباع المذاهب والأديان فيها، ومنهم «النسطوريون» من المسيحيين، الرافضين للثالوث، والذين آمنوا بأن مريم العذراء، لم تلد إلهًا، بل إنسانًا حلت عليه كلمة الرب. و«الوثنيون» المؤلهون المحسوسات من تماثيل حجرية وأقانيم، و«البوذيون» الذين فرضوا الإيمان بالمستنير بوذا، وحرّموا على أنفسهم، أكل اللحوم،

بزعمهم أنها أرواح متناسخة، و «الزرادشتيون»، أتباع « الأفيستا » المنسوبة إلى الرسول الفارسي « زاردشت » التي هي أصل من أصول المجوسية، و « المانويون »، وهم أتباع ماني، الذي دعا إلى «المثنوية» القائمة على أصلين للوجود، متناقضان، ومستقلون عن بعضهما، نورا وظلاما، وخيرًا وشرا.

تنفست الصعداء في غفوة الرمان، وشعرت براحة لا مثيل لها، فهذا السبط العظيم قد أخذ بثأر خاله جذيمة الأبرش الذي وقف أمام أعتى الرجال، وهزم أقوى الجيوش، لكنه سقط ضحية شهوة.

***

٢٤

امتدت المملكة في عهد سبطي عمرو بن عدي، وشملت شرق سوريا ونجد وهجر والقطيف والحيرة، وبعض أراضي الساسان التي أنتزعها الملك جذيمة ذات معركة. تمتمت، فرحًا ومتحسرًا في آن، فرحًا لما قد بدأه العرب من تمدد وتمدن، في دولة عظمى احتضنتهم، لم تفرق فيها بين دين أو مذهب، ومتحسرًا لخروج مملكتي عن نسلي المباشر إلى نسلي من ابنتي رقاش، وقد نأى بعض أبنائي بأنفسهم عن الحكم تورعًا وخيفة، وفضلوا أن يسخروا أنفسهم لخدمة العرب في مجالات أخرى. وسأقص عليكم عن بعضهم بعدما أحدثكم عما جرى في مملكة المناذرة التي كما ذكرت هي امتدادا لمملكتي التي بنيت بدمي ودماء أبنائي وأحفادي، وها هو سبطي الملك عمرو الذي لقبه العرب بأبي المناذرة ورأسها لأنه حكم بدهاء ومكر اقتضته الفترة، فلم يترك للفرس ولا للرومان مدخلا على مملكته وشعبه. حكم سنوات قليلة لم تتجاوز الثلاثين سنة ،ومات وهو في مقتبل العمر، حسبتها قرابة الستين سنة مما يعده أهل الأرض، وفيها نهضت البلاد،

وتوقف النزيف. ولما اشتد المرض عليه، استخلف ابنه امرئ القيس الأول، وهو من زوجته مارية بنت عمرو الأزدي. وقد لُقب امرئ القيس ب «ملك العرب كلهم»، بعد أن أخضع قبائل معد ونزار وأسد، وطرد ملك التبابعة «شمر يرعش»، الذي زعموا أنه غزا أرمينيا، وفارس، والهند، والصين. لَكِنِّي من هذه المبعدة، ومن غفوة الرمان الجميلة، أؤكد لكم أن هذه مزاعم أطلقها صبيانه، فمملكة شمر يرعش لم تتجاوز شعاب نجران وبعض من أطراف ظفار، ولما شكل خطرًا على أطراف مملكة المناذرة المنفرطة عن المملكة التي أسست، انتزعها منه «ملك العرب كلهم» في معركة لم تدم طويلًا.

حرص الملك امريء القيس أن تكون دولته على مبعدة مما يحصل بين الساسانيين وقبائل العرب الأخرى، وهذا ما كنت أوصي به الأبناء والأحفاد والأسباط، لأن الرومان والساسانيين ليس لهم أمان، طبعهم الخديعة، وحربهم من أجل فرض أديانهم وعقائدهم على بعضهم البعض، بينما نحن نبني من أجل السلام والعيش الرغيد، أوصيتهم أنْ أفشلوا مخططاتهم، فهم لن يتركوا العرب يبنون ما لم يستطيعوا هم بناءه لما فيهم من تلوث عقدي وفكري.

في هذا العهد العربي المستنير، كانت الفتن على أشدها بين نبلاء الساسان، وصار بينهم هرج ومرج حد أنهم قتلوا ملكهم «هرمز الثاني»، وقتلوا ابنه «أذر نرسي» الذي تولى العرش بعده لأيامٍ معدودات، بينما هرب ابنه الثالث.

زادت القلاقل، وانتبه إلى ذلك الملك أمرؤ القيس، فعزز نفوذه وحمى أطراف دولته، غضب العرب من نبلاء فارس وضعوا تاج المُلْك على بطن زوجة المَلك الحامل في الشهر التاسع، ولما ولدت ابنًا أسموه «سابور الثاني». ظلّ الحكم بيد أمه والنبلاء حتى بلغ السادسة عشرة من العمر.

ثار هذا السابور على العرب الذين كانوا حلفاء آبائه، ولا أخفيكم أني أسفت أشد الأسف لضعف العرب المحاذين لبلاد الساسان حينها بسبب تشرذمهم ورفضهم الانضواء في دولة المناذرة رغم المحاولات الحثيثة من ملك كل العرب، ولو قبلوا بأمره لما تجبر عليهم ساسان الثاني وخلع أكتافهم حتى لا تقوم لهم قائمة، ومن كثر ما خلع من أكتاف للعرب الذين خانوا إخوتهم، لقبه الناس «سابور ذو الأكتاف».

وقد كنت متخوفًا من سابور الثاني أن يشتد عزمه وتقوى شوكته فيلتف على أسباطي من المناذرة خاصة أن الملك امرؤ القيس قد بلغ من العمر عِتِيًّا، والفرس كانوا دائمي التربص بالمملكة ينتظرون بعض ضعف حتى يحتلوها بزعم إرثهم التاريخي. لكنها بفضل الرب العظيم ثم بفضل سياسته الحكيمة والذكية ازدادت قوة وسَلمًا. وحين دنا أجله أوصى بالملك لابنه عمرو وهو ابن مارية بنت ملك الغساسنة ثعلبة بن عمرو، وهيَ من قيل فيها المثل: «قرط مارية»، لأنها كانت تجعل قرطيها الكبيرين في أذنيها، لتبدو أكثر جمالًا وأبهة، فهي ابنة ملكٍ، وأم ملكٍ وقد لقب العرب الملك عمرو بن امرؤ القيس ب «مُسَعِّر الحروب».

ولأن الإنسان يأخذ من اسمه أو كنيته نصيبًا، فقد دفعته كنيته وشجعته على خوض حروب لم يكن فيها خير للملكة، مستنزفًا الأموال والجيوش حتى بدا الضعف على المملكة، وفقد السيطرة على بعض أطرافها، فتحقق لسابور الثاني مبتغاه، وفرض عامله أوس بن قلام ملكًا على الأجزاء المغتصبة من أراضي العرب. ولمّا تُوفِّي الملك عمرو بن امرئ القيس، هبت العرب التي لم يرق لها الخضوع لحكم أوس بن قلام الذي اتسع حكمه وكادت المملكة أن تسقط برمتها في يده، قام صنديد من صناديد لخم

يدعى «جحجبا بن عتيك» فقتل الملك أوس، وعاد المُلك إلى ابن الملك عمرو، المسمى على اسم جده امرئ القيس، وقد رأيته من غفوتي هذه مضطر إلى استخدام القوة المفرطة مع أعدائه حد أنه كان يحرقهم بالنار على وجيههم، وقد قال فيه شاعر:

وَسـمْتَ وَجُـوهٌ للمُلـوكِ كَريمَـةً
وَأَورَثتَهـا ذُلاً مِـنَ الخِـزي بَاقِيَـا

وكما أسلفت، فإطلاق الألقاب عامةً ليس بالأمر الجيد، لكن العرب في زماننا كانت مغرمة بتبديل الأسماء وإطلاق الألقاب، كانت تسمي أبناءها بأسماءٍ ولقبتهم بألقابٍ مستشنعة ترهيبًا لأعدائها، وتسمي عبيدها بأسماءٍ وألقابٍ مستحسنة لخدمتهم. كان يكفي هذا الملك العظيم نسبته لأمرئ القيس، ويعنى الشدة والمنعة، على كل حال هذا ما اعتاد عليه الأحفاد والأسباط وليس بيدنا إلا التسليم به خاصة أننا على مبعدة أثيرية زمكانية، لا حول لنا عليهم ولا قوة.

وقبل أن يتوفى الملك عمرو بن امريء القيس حرص على استنابة ابنه النعمان على شؤون البلاد، وقد كان الملك الجديد (ذو عين كريمة)، وعادةً ما يكون النقص في شيءٍ إلا تعوض في شيءٍ

آخر، وهذا ما جرى على الملك الذي كان يعيّره الناس بـ «النعمان الأعور»، ولقب أيضًا بأبي قابوس. سخر النعمان قدراته العقلية الفذة في بناء العديد من الكتائب المجندة، كان يغزو الأعداء وخاصة الخونة من العرب الموالين للساسان والرومان بكتيبتين هما كتيبة الشهباء ودوسر، واحتفظ بثلاث كتائب أخريات غير نظامية هن «الصنائع» و«الوضائع» و«الرهائن» وقد دربهم أحسن تدريب، أرعب به الرومان والساسان الذين أحجموا عن إثارة القلاقل، بل أن يزدجرد الساساني ارسل ابنه بهرام ليتربى في الخورنق مع أبناء الملك النعمان. فأفاد هذا الملك أمته، واستقرت مملكته.

وفاضت البلاد بالخيرات، حينها قرر أن يتباهى بما أعطاه الرب العظيم، وعزم على بناء مدينة على نهر دجلة في العراق سميت النعمانية، وبنى قصرًا عظيمًا فاخر به كل الأمم، اطلق عليه قصر «الخورنق» وهو البيت الذي يأكل ويشرب فيه الملك، بناه بعد مشاورات مع أفضل المهندسين في «أبو صخير» وهيَ ناحية في العراق، على مقربة من النجف، أستوظف لبنائه مهندسًا رومياً شهير يدعى «سنمار»، صممه وأتم بناءة في عشرين سنة حسب ما عددت في أيامكم الدنيوية القصيرة.

وقبل أن يدخل الملك النعمان إلى القصر المنيف، طاف عليه مع المهندس سنمار، ولم يلبث أن سأل الملك:

- هل هذا أفضل ما جادت به معرفتك الهندسية يا سنمار؟!

لو أردتني بناء قصرٍ يدور مع الشمس لفعلت!، وأردف قائلا:

- أعرف في هذا القصر آجرة لو أزيلت لانقض القصر من أساسه.

تفاجأ الملك ثم سأل:

- أيعرف أحدٌ غيرك مكان هذه الآجرة؟»؟

قال سنمار متفاخرًا :

- كلَّا .. أيها الملك.

على الفور، أمر الجند برمي المهندس من أعلى القصر، وسمي ذلك «جزاءُ سنمار». وحسب ما علمت أن هذا جرى عندكم مثلاً.

ما أضحكنا ونحن في غفوة الرمان ما جاء في مقتل الملك النعمان من ترهات، خاصة رواية السيحان في الأرض، إذ زعموا أنه ساح في الأرض كما يسيح الزبد في النار! وهيَ من السخف

بمكان، وليتني كنت أعرف حقيقة اختفاءه، لكنّي على معتقد أن الملك النعمان قد فاق فكره وأختلف عن الممكن في مجتمعه وعصره، وربما هذا ما تسمونه في عصركم بالمرض النفسي، وقد سمع رؤية القديس «سمعان» فسبح في فضاء لا يحتمله عقل إنسان الذي «عُقل» أصلاً في زمكان محدد، فخرج على وجهه هائمًا «سائحًا» في الأرض، ومات في مكان ما.! لا أعلمه!

***

٢٥

حمدنا الربّ أن ابنه المنذر بن النعمان، وهو ابن هند بنت زيد الغسانية، قد ملأ الفراغ الذي تركه النعمان، وأعلن نفسه ملكًا على البلاد حتى عودة أبيه أو موته، مؤكدًا استمرار الدولة التي بنينا رغم كل التحديات.

وحقيقة إني فرحتُ كثيرًا، لما علمتُ في غفوتي، أن المنذر كان قويًا وشديد البأس، ولينًا حليمًا مع الأصدقاء. بل إني شبهته بابني جذيمة الأبرش لما فيه من دهاء ومكر حتى في طول العمر. فقد اتسعت المملكة في عهده وبلغت مبلغًا عظيمًا حد أنه أخضع بعض أراضي إمبراطورية الساسان إلى مملكته بدهائه وحكمته. بذكائه نصب ربيبه في قصر الخورنق «بهرام»، ملكًا على الساسان برغم المعارضة الشديد من المرازبة والكهان في فارس، وكما قصصت عليكم فقد تربى بهرام في بيت الملك النعمان الذي جعله في بنيه وصحبةَ أهلهِ وذويه. وأحضر لهم المعلمين الأفذاذ، علموهم الكتابة والقراءة والصيد وركوب الخيل، افضى هذا التقارب

العربي-الفارسي إلى عز وكرامة ومزيد خير. وبلغ أوجه حين تقدم الروم في حروبهم على الساسان عندما اضطهد يزدجرد المسيحيين فيها، فحاصروا مدينة «نصيبين»، في ماردين التي كانت تتبع مملكة الساسان، حينها أستفزع الملك بهرام بصديقه وربيبه الملك المنذر، فأرسل عليهم من كتائبه المجندة، فك الحصار عن المدينة، وبعد أن أتم المنذر مهمته العسكرية جمع الفرس والرومان في صلح لم يدم طويلاً بسبب اختلاف عقائدهم التي هي خلف كل خلاف بينهما.

ورغم الاستقرار الذي ساد في هذه الحقبة، إلا أن أطماع بعض عرب الغسانة أعادت القلاقل حين هجموا على بلدة «حور»، سبوَا أهلها، مما اضطر الملك المنذر أن يبعث ابنه الشاب الأسود بن المنذر على أحد الكتائب، انتصر عليهم ووأد فتنتهم.

نظر إليّ أخي عمرو، قال أبشرك لقد آل الملك إلى الأسود بعد أن توفي والده العظيم عن نيف وأربعين سنة من العمر، وقد كان الأسود كأبيه عظيمًا ومحبوبًا لجرأته وطيبته، بدأ حكمه بمحاربة «ذبيان» و «بني دودان» الذين قتلوا ابنه «شرحبيل» وهو مسترضع عندهم وكان فيهم القاتل الحارث بن ظالم الذي اشتهر بالظلم والمكر والمنعة، وكانت له قدره على التخفي والفتك بأعدائه.

تشوشت الأخبار عن الملك المحبوب، فلم استطع تقصي حقيقة مقتله، قيل إن الغساسنة اكمنوا له وقتلوه، وقيل انه بعد أن حكم نيفٌ وثلاثون سنة، ضاق به الفرس ذات قوة في عصر فيروز ابن بهرام، فقاتله حتى قبض عليه وأودعه السجن الذي مات فيه بعد عشرين سنة.

ولم يك بد من نقل الملك إلى أخيه المنذر بن المنذر حتى يكبر ابنه النعمان الأسود الذي لم يعش طويلاً، حيث أصابه عرب بني ثعلبة الموالين للروم في رأسه إصابة بليغة، مات على إثرها، ثم أغاروا على الحيرة، ودمروها تدميرًا، وقد فعل بنو ثعلبة هذه الفعلة الشنيعة انتقامًا من الملك النعمان بن الأسود الذي قاتل الروم في حران ، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، قاد الملك هذه المعركة في مقدمة جيوشه، مستخلفًا «أبو يعفر اللخمي»، ولما عاد الجيش مهزومًا ظلّ أبو يعفر زهاء سبع سنين يحكم المملكة بالاستنابة، ولما لم يعد الملك قرر مهاجمة الروم انتقامًا للملك النعمان، وقد خلفه لنيفٍ وثلاثين سنة، أو هكذا عددت بحسابات أيامكم الأرضية.

و تولى المنذر بن امرئ القيس بن النعمان، ولقبه العرب ب «أبي قابوس»، لجمال وجهه وحسنه، وقد أخذه عن أمه، مارية التي لقبها الناس، بـ «ماء السماء» لجمالها الأخاذ وقد كانت

العرب تفتخر بها ويقسمون بحياتها وكانت نساء الكهنة والأكاسرة الفارسيات يتقربون إليها ويحضرن لها الهدايا، فغلبت كنيتها اسم أبيه وجده، فأصبح يسمى: الملك المنذر بن ماء السماء.

وهو من زُعم بأنه «ذو القرنين»، وقد استشكل عليّ هذا كثيرًا، أكثر من المؤرخين الذين عاشوا بعده، لأني، وبحكم شريعتي المسيحية كنت بدايةً أعتقد أن ذا القرنين هو الإسكندر الأكبر، لأنه جاء صريحًا في الكتاب المقدس، ثم جاء في سفر دانيال الثامن، رؤيا دانيال المناقضة لما آمنت به، وقد كانت في السنة الثالثة من مُلك «بيلشاصر» وهو الابن البكر «لنابونيدوس»، آخر ملوك الإمبراطورية البابلية الذي قتله الفرس في ٥٣٩ قبل الميلاد، قال دانيال في رؤيته: أَمَّا الْكَبْشُ الَّذِي رَأَيْتَهُ ذَا الْقَرْنَيْنِ فَهُوَ مُلُوكُ مَادِي وَفَارِسَ. وَالتَّيْسُ الْعَافِي مَلِكُ الْيُونَانِ، وَالْقَرْنُ الْعَظِيمُ الَّذِي بَيْنَ عَيْنَيْهِ هُوَ الْمَلِكُ الأَوَّلُ . وَإِذِ انْكَسَرَ وَقَامَ أَرْبَعَةٌ عِوَضًا عَنْهُ، فَسَتَقُومُ أَرْبَعُ مَمَالِكَ مِنَ الأُمَّةِ ، وَلكِنْ لَيْسَ فِي قُوَّتِهِ . وَفِي آخِرِ مَمْلَكَتِهِمْ عِنْدَ تَمَامِ الْمَعَاصِي يَقُومُ مَلِكٌ جَافِي الْوَجْهِ وَفَاهِمُ الْحِيَلِ. وَتَعْظُمُ قُوَّتُهُ ، وَلكِنْ لَيْسَ بِقُوَّتِهِ . يُهْلِكُ عَجَبًا وَيَنْجَحُ وَيَفْعَلُ وَيُبِيدُ الْعُظَمَاءَ وَشَعْبَ الْقِدِّيسِينَ . وَبِحَذَاقَتِهِ يَنْجَحُ أَيْضًا الْمَكْرُ فِي يَدِهِ، وَيَتَعَظَّمُ بِقَلْبِهِ. وَفِي الاطْمِئْنَانِ يُهْلِكُ كَثِيرِينَ، وَيَقُومُ عَلَى رَئِيسِ الرُّؤَسَاءِ ، وَبِلاَ يَدٍ يَنْكَسِرُ.

وبعد تأملٍ من هذه المبعدة المستشرفة، ارتأيت أن في المنذر من الصلاح والتقوى ما يؤهله ليكون الرجل الصالح الذي آخى بين الروم والساسان لكنه حتمًا لم يحكمهما، وأتوقف هنا لأن الرب لم يُلْهِمْنَ في غفوتي هذه أن أطلع على أكثر مما أطلعت عليه، ولهُ الأمر.

لا أخفيكم أني تعجبت من خطأ هذا المَلك العظيم في توقيت طلب ثأر أبيه عند الحارث الذي ملك في الغساسنة، وقد ارسل إلى المنذر رسالة يحذره فيها من معاركته، قال:

- أعددت لك المرد على الجرد.

علمتُ من هذه المبعدة أن الحرب بينهما قائمة لا محالة، وظللت أدعوا الرب العظيم أن يوقف النزف المهراق بين أبناء العمومة الذي لم يستفد منه إلا الروم والفرس وقد جعلا العرب حطبًا لهما، محاربين عنهما بالوكالة.

وحين سمع الملك المنذر مقولة الحارث، قال:

- وقد أعددت له الكهول على الفحول.

فصار إلى المعركة على جيش عظيم. لكن الحارث استطاع أن يكيد له كيدًا عظيمًا، ارسل ابنته حليمة ذات الحسن والجمال، تعطر قادة جيوشه، تتهادى بين أيديهم، وبعد أن أفاقت فيهم الرجولة والاشتهاء إليها، صاح فيهم:

- من يأتينا برأس المنذر بن ماء السماء، زوَّجتهُ ابنتي حليمة.

فهبّ لبيد الغساني، وقال:

- أنا لها يا أيها الملك.

أخذ فرس أبيه الشهيرة، ودخل بين الصفوف يبحث عن الملك المنذر، وقد كان لا هم له من الضربات التي كانت تأتيه من شماله ومن يمينه، وحين اقترب من الملك المنذر انقض عليه بسرعة فائقة، غرس سيفه في خاصرته، وارداه صريعًا، أخذ فرس الملك وهرب بها من الجانب الآخر للبَّرية، ليحمل معه زوجته الجديدة. لذلك سميت بـــ «معركة حليمة». حد أن الأقوام كانت تردد: «ما يوم حليمة بسر!». وإثر هذه المعارك العبثية، ضاعت أجزاء كثيرة من المملكة للفرس وللرومان ولقطاع الطرق وبعض الخائنين من أبناء العمومة، ولم يبق منها في حكم المناذرة غير الحيرة ودومة الجندل.

لزم ما تبقى من المملكة ابنه عمرو، الذي اشتهر لاحقًا بمسمى «عمرو هند»، نسبةً إلى أمه هند، تمييزًا عن أخيه الأصغر عمرو، وقد لقبه العرب بالقابٍ كثيرة، كان يتسع لها مزاجه، وتستريح لها نفسه، ومنها: «مُضرّط الحجارة» و «محرق الثاني»، لأنَّه حرق بعض أهل تميم بالنار متأسيًا بجدِّه في الفعل وليس في الهدف، وذلك انتقامًا لأخيه الأصغر أسعد بن المنذر الذي قيل إن سويد الدارمي التميمي قد قتله غيلة، حينها أقام الحرب على قبيلته، وحرق وجيه أهلها.

ومما أسفت له أن عمرو كان بئيسا وفيه كِبر وأنفة، لا يعرف المزاح، ولا الضحك... وقد زاده شقاءً أنَّ أنفته لم تكن على قوة أو دراية، كان معظّمًا لنفسه بما يوافق هواه وطبعه البغيض، يتصرف بعقلية غير ناضجة حد أنه- ذات منادمة- سأل أصحابه:

- هل تعرفون من يأبى أن تخدم أمهُ أُمي؟.

قال أحدهم:

- نعم، أعرف: الشاعر عمرو بن كلثوم، فهو عزيز قومه، وأعلاهم نسبًا، وأمه ليلى، ذات الحسب والنسب، أبوها المهلهل، وأخاها، الملك كليب، وزوجها كلثوم!.

غضب الملك عمرو من وصفهم لأم عمرو بن كلثوم، فأرسل إليه في البحرين، أن آتي بأهلك جميعًا، وأمر عماله ببناء سرادق كبير بجانب منزل أمه هند، أنزل فيها ضيفتها ليلى أم عمرو بن كلثوم، وطلب إلى أمه أن تكيد لها، صرفت هند الخدم عنها، ثم طلبت من ضيفتها مناولتها إناء الفاكهة على مسمع من الرجال الجالسين في السرادق الملاصق، لكنّ ليلى علمت أن في الأمر شيء، فقالت:

- لك أن تقومي وتحضريها بنفسك.

كررت هند طلبها إلى ضيفتها بصيغة الأمر، حينها صاحت ليلى:

- يا لذل تغلب! يا لذل تغلب!.

أحس عمرو بن كلثوم بمكيدة عمرو بن هند، قفز إلى سارية عليها سيف، سحبه من جرابه وراح يضرب به في كل ناحية من جسد الملك عمرو، فصل رأسه، ثم انشد:

ألا من مبلغٌ عمرو بن هندٍ

فما رعيت ذمامة من رعيتا

أَتَغصِبُ مالِكًا بِذُنوبِ تَيمٍ

لَقَد جِئتَ المَحارِمَ وَاِعتَدَيتا

حينها خرجت أمه من السرادق، أماطت اللثام عن وجهها، وقالت لابنها:

- بأبي أنت وأمي، إنك لخير منهما.

راجت هذه القصة بينكم، وغدت مثلاً ومما اشتهر أيضًا قول العرب «أفتك من عمرو بن كلثوم».

قهر الرجال أمرا شنيع، وما حلّ بعمرو بن هند لم يأت على رأسه فقط، بل أضاع المملكة التي أسسنا لها، وما بقي منها أصابها الضعف، خاصة أن من خلفه الملك قابوس بن المنذر كان في أرذل العمر، وليس له قدرة على الحروب ولا حتى على المدافعة عن مملكة أجداده، أستغل هذا الضعف الملك الحارث بن جبلة في الشام برغم ذلك رجع خائبًا خاسرًا المعركتين اللتين خاضهما والتي جلبت له مزيدا من الضعف.

حمدت الرب العظيم حين رأيت رجلًا من «يشكر» يتسلل إلى حصن الحارث، طعنه طعنات حتى مات وسلب ما عنده من مال.

ضعفت الدولة وسيطر الساسانيون على حكامها مستغلين أيضًا الخلافات المستشرية بين المناذرة، حينها جاءوا لهم بحاكم فارسي يدعى «فيشهرت » المشتهر بـ « السهراب »، وبعد جولات من الصراع، اتفق الأخوة أن يحكم «أبو الأشاهب»، وكني بذلك لأنَّه رزق بثلاثة عشر من الأبناء الشديدي البياض، الجميلي السحنة. لكن الحكمة غابت عن أبي الأشاهب، واستعجل أمر الثأر، جهز جيشًا، وأتجه به إلى الشام طلبًا لدم أبيه، ترصد لهم الحارث الغساني وبعض فرسانه، فقتله. وانتقل الحكم إلى ابنه النعمان بن المنذر، الذي اشتهر بأبي قابوس. وكان من دهاة العرب، وهو الذي بنى مدينة النعمانية، نقم عليه كسرى الثاني برويز لأنه رفض تزويجه ابنته، فأرسل من يقبض عليه وأهله، وسقاهم السم حتى ماتوا. نتج عن هذا فراغ استغله كسرى، فبعث مرزبان بولر على الحيرة، لكنه لم يستطع السيطرة على الثورة فيها، فأزاحه وجعل روزبي مرزوق الَّذي سكن خارج الحيرة خوفًا من ثورة العرب عليه، لكنه مات بالطاعون.

حزنت كثيرًا لما ضاع من مملكة أسست لها منذ القرن الثاني للميلاد وظلّ الأمر كذلك حتى قامت معركة الكرامة الأولى، «معركة ذي قار الكبرى» التي انتصر فيها العرب على كسرى

وقومه. لكن الحروب مهما بلغ فيها الانتصار لا بد من خسائر، وكانت خسارة العرب بعض أراضي الممالك الصغيرة في أطراف المملكة، ومنها الحيرة التي جعل كسرى عليها، «إياس بن قبيصة»، ثم «زاديه»، وهو الذي هرب لما سمع بقدوم رجل عربي لقب بسيف الله المسلول، واسمه خالد بن الوليد، كان من قادة رسول الأمة العربي، محمد بن عبد الله الذي بعث في مكة المكرمة. فاستلم الحكم النعمان بن المنذر الذي لم يدم حكمه إلا ثمانية أشهر، إذ قتل في جواثا في البحرين، ناحية الأحساء، لسوء فهم، وبهذا تكون انتهت غفوتي مع أبنائي وأحفادي وأسباطي، وأعود بكم قليلا إلى الماضي لأحكي لكم سيرة ملوك آثرت أن أتركهم بعد حكاية المناذرة حتى لا اتهم بمحابة ابنائي على أبناء العمومة، فكلهم بالنسبة لي عرب أصلاء، همهم المحافظة على عروبة أراضيهم، والمدافعة عن ربقتها.

***

صكٌ على قارعة الزمن

أنَّ أبا بكر الصديق وجّه حذيفة بن محصن الفلفاني وهو من بارق حليف للأنصار، وكان له بصر. فوجهه إلى عمان أميرهم، ليجمع منهم الصدقة. فلما صار في ولد الحارث بن مالك بن فهم، ليصدقهم. تناول بعض أصحابه امرأة من العفاة، وكان عليها فريضة شاة مسنة، فأعطتهم عتودًا أو عناقًا مكان الشاة المسنة. فأبوا أنْ يقبلوها، فأخذوا ما أرادوا. فنادت يا آل مالك. فقال حذيفة: دعوة جاهلية. وخاف أن يكون القوم قد ارتدوا فأغار عليهم فأخذ ناسا منهم، وهم قليل فمضى بهم إلى المدينة.

واتبعه سبيعة بن عراك الصيلمي، والمعلى بن سعد الخمامي، والحارث بن كلثوم الحديد في أصحابهم. فوفدوا إلى أبي بكر. فقالوا: يا خليفة رسول الله، إنا على إسلامنا لم ننتقل عنه، ولم نمنع زكاة، ولم ننزع يدًا في طاعة، ولم نرجع عن دين، وقد عجل إلينا صاحبك وكففنا أيدينا إلى أن آتيناك.

فقال: أصنع بكم ما صنعت بالعرب، إنْ شئتم خليت المال، وأخذت السبي فعادوا بالسبي.

فقالوا: على كل أسير أربعمئة وخمسين درهما .

ويقال إن سبيعة بن عراك، خرج إلى أبي بكر الصديق في شق دبا، الذين أخذهم حذيفة بن محصن القلفاني. وكان سبيعة زعيم القوم، والمعلى بن سعد، وكان اسم المعلى ثعلبة، فسماه عمر بن الخطاب المعلى. فقدموا المدينة، وقد مات أبو بكر الصديق، رحمه الله، وقام بأمر الناس عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. فكلماه في سبي أهل دبا . وقال المعلى بن سعد الخمامي: يا أمير المؤمنين: إن حذيفة بن محصن تعدى طوره، وعظم في الناس حدثه، ولولا مراقبة أمير المؤمنين لكان شكامه متانا جزاء له عن غيره، واعظًا لغيره. ولكن حملنا على مخافة نكله، فنرادف العثرة، وسكنت الحرة ولم نكد .

فقال عمر: يا معلى إنَ في الحق سعة، وكف غربك أولى أن الإسلام ساوى بين الناس فرفع الوضيع ورفع الشريف، وأعطى كل امرئ قسطه من خيره وشره. ثم أمر عمر برد السبي. فذلك حيث يقول كعب بن معدان الأشقري، يفخر على يزيد بن حسان الأيادي:

فـي زمـان سـبيعة بـن عـراك

والمعلـى إذ يبنيـان الفعـالا

حـين ردا سـبي أهـل عمـان

أكثـر الحـل فيـه والترحـالا

وفيه يقول أيضًا:

ومـا ولـد المخاصـن كالمعلـى

أخـي النجـدات ثعلبـة بن سـعد

***

٢٦

وأمَّا ابني جماز، فقد أسميته جمازًا، لأنه سريع العدو وثّاب، وليس كما أشاع البعض أني أسميته «زياد»، الاسم الذي لم يشع في قبيلتنا وقتئذ، وله من النسل العظيم ما جاء على حقيقة اسمه، بنو جماز. وعلمت أيضًا أن بعض المؤرخين المتأخرين من بني قومي قد نسب إليه الملك لبني معد في اليمن، وأنه كان ظالمًا متعسفا. وكان إذا رأى رجلًا دهينًا أمر بحلق رأسه، وإذا رأى جميل ضربه على وجهه، وإذا رآه مفوهًا هشم فاه، وزعموا أيضًا أنه حكم مئة وعشرين سنة، أذاق فيها أهل معد وآيلة الشام العذاب الوخيم، وزعموا أنَّه صاحب الجنة التي خوت على عروشها بعد أن تحدى الرب العظيم، مع أن الحقيقة التي لا مراء فيها أن صاحب الجنة كان رجل من عاد، أو من بني إسرائيل واسمه باراطوس، وقد أسرّ لي أبي من غفوته الرمانية ، أنَّهما أخوان من بني إسرائيل، أحدهما كافر واسمه فرطوس، والآخر مؤمن واسمه قطفير، وقد ورثا الاثنين عن أبيهما ثمانية آلاف دينار وقسما الميراث بينهما،

وملك فرطوس الجنتين التي ذكرت فيما نزل على نبي العرب من قرآن. ثم إن القصة تحكي في الكتاب المنزل عن أخوين، فلماذا ألصقتموها في ابني جماز، أيها المؤرخون التائهون؟! وزدتم في الافتراء عليه، بقولكم إن المثل، «أكفر من حمار»، تصحيفًا ل «أكفر من جماز»! أي عقل هذا أيها المؤرخون؟ أهكذا ساقتكم دنيا الحسد لتفتروا على أبطالكم؟ أم أنكم كنتم تمشون على هدى الفرس الذين عاثوا في تأريخكم فسادًا، فلم يظهر فيكم فارسًا إلا نعتوه بالجرم، ووصموه بالعار!، حتى لا يكون لكم امتداد تأريخي عظيم، تتباهون به، لا أعرف أأبكي أم أضحك عليكم في غفوتي هذه؟! اسمحوا لي وأنا أخاطبكم بكاف الخطاب لاستنهض فيكم المثقفين وأقول لهم بأعلى صوت منحنيه الربّ: «طهروا تاريخكم من العبث الفارسي والاستشراق الخبيث».

وأسألكم بالرب العظيم، أيستحق ابني جماز الذي قاتل لشرف العرب، ونصرة المظلوم، وإخراج المجوس من أرض عمان أن تلصقوا به هذه التهم التافهة؟! حتى- يا أهل الأرض- ما نسبتموه إلى شاعر عدوان، المستجير بن عمرو، إنما هو بعض شعر منحول، وربما لو استغرقتم فيه أكثر، لوجدتم فيه العجب العجاب، تحسبون أننا متنا ولا نرى أفعالكم، نجن نرى ونسمع

وأنتم لا تشعرون: قال الشاعر المزعوم:

إلى الله أشكو لا إلى الناس أشتكي

بوائق جاءت من جماز بن مالك

فيا معشر الأسد الذين هم هم

خيار عباد الله ترضون ذلك

لكم شيمة لم يعطها الله غيركم

وحاجة - أحلام وأصل مرابك

قهرتم معدا غثها وسمينها

ملوكالهم والقوم تحت السنابك

وكنتم خيار الناس ملكًا وقدرة

فكيف بهذا بينكم شر مالك

انتحلوا هذا الشعر انتحالًا، فالاستهلال كما تبين لي وأنا في هذه المبعدة عن أرضكم أنه استهلال لقصيدة بطل عربي وخليفة من خلفاء دين الإسلام الذي أنزل من الرب العظيم على رسوله محمد بن عبد الله، وقائله، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ابن

عم الرسول العربي الأمين الذي نزل فيكم بمكة. إذ قال ذلك الأمير المستنير:

إِلـى اللَـهِ أَشـكو لا إِلـى النـاسِ أَشـتَكي
أَرى الأَرضَ تَبقـى وَالأَخِـلّاء تَذهَـبُ
أَخِـلّايَ لَـو غَيـرَ الحِمـامِ أَصابَكُـم
عَتِبـتُ، وَلَكِن مـا عَلى المَـوتِ مُعتَبُ

وأضافوا إليها بيتًا آخرًا، من بائية شاعرٌ يدعى، النابغة الذبياني، وهو زهير بن معاوية، الذي كانت تضرب له قبة في سوق يدعى سوق عكاظ، يأتيه الشعراء من كل فجٍ عميق، تعرض عليه أشعارهم. وهو ذات الشاعر الذي طارده حفيدي النعمان بن المنذر حين شبب بزوجته المتجردة، لكنه عاد إلى كنفه. ومن أكاذيبهم أيضًا أنه بقصيدته التي سأذكر لكم مطلعها، مدح بني غسان لأنهم قتلوا وشردوا قبيلته ذبيان.

ما دهاكم يا أهل الدنيا تبهتون الرجال، وتنسبون المقال لغير قائل وبلا مآل؟ وحتى لا أزعجكم بطول القصيدة، خاصة أنكم على عجلة دائمة من أمركم، ولستم مثلنا شربنا الأناة والصبر مع

الحليب الذي رضعناه من أمهاتنا. استهل شاعر العرب النابغة قصيدته التي ذكرت لكم أن المؤرخين انتحلوا منها قال:

كِلينـي لِهَـمٍّ يـا أُمَيمَـةَ ناصِـبِ
وَلَيـلٍ أُقاسـيهِ بَطـيءِ الكَواكِـبِ
لَهُـم شـيمَةٌ لَـم يُعطِهـا اللَـهُ غَيرَهُـم
مِنَ الجودِ وَالأَحـلامُ غَيرُ عَوازِبِ

ولن أطيل عليكم، لأثبت لكم، أكذوبة الشكوى على ابني جماز بن مالك، لكني سآتيكم بأمر آخر، ربّما يزيدكم ثقة في أبنائي العظام، الذين أعانوني في بناء أول وأكبر مملكة عربية، رغم التحديات التي واجهنا من أبناء عمومتنا بنو غسان الذين لم يَكُفّ زعمائها عن عمالتهم للرومان، ومن بعض قبائل العرب التي كانت ذيلاً في أست الفرس.

آه.. أيها الأرضيون، أتعبتمونا ونحن في غفوة الرمان، دافعوا عن أمتكم وتأريخها وإرثها العظيم، أضربوا بيد من حديد، كما كنت أفعل، ويفعل أجدادكم الأجلاء، أضربوا على مثل الذيول الساسانية التي اتهمت «جماز» العظيم، بأنه ملك كان يأخذ كل

سفينة غصبًا، مع أن بينه وبين موسى والخضر عليهما السلام، مئات السنين، وإن لم يك موسى هو النبي عليه السلام، فلا يوجد لديكم يا أهل الأرض مستند تاريخي يقول بأن الملك الذي يأخذ كل سفينة هو جماز بن مالك، إلا قول المؤرخ العوتبي ، وبعض من نقل عنه، فالعوتبي هو المصدر الأول والوحيد، وبينه وبين ابني الملك جماز مئات السنين، ومما جاء في الآثار التي قرأت من مبعدتي هذه عن هذا الأمر الذي أرقني انتشاره بين العرب، أنَّ في هذا الملك ثمانية أقوال، لم يك مشابهًا لأي منهم، قيل، إنه ملك أزدي، وملوك الأزد كثر، وقيل إنه مالك بن عبد الله بن نصر، وهذا وإن تشابها في الاسم الأول، إلا أنه مختلف في باقي النسب، فأبني جماز بن مالك بن فهم بن دوس الزهراني، وقيل إنه قابيل بن آدم، وقيل إنه عمائيل، وقيل إنَّه خضرون وقيل إنَّه النبي اليسع، وقيل إنَّه بليا بن ملكان، لكن كما ذكرت لكم أيها الأحياء على البسيطة، الحقيقة أنه ابني جماز ليس المقصود... نعم قلت: ليس المقصود.

فَهَلَّا سمعتموني الآن، وأنا أحدثكم عن ابني الأجل، ليس لأنه ابني ولكنه نبت على الشرف، ثم إني أنا أعلم به من كل أحد، لقد عينته في حياتي ملكًا على آيلة الشام، وهي بلدة صغيرة حكمها، نشر العدل فيها، حينها حاول الساسان وذيولهم قتله لكن الرب

أراد له الحياة، وظل حاكمًا لها سِنِينَا طويلة، كما حاول إبانها الروم أن ينقلبوا عليه لكنهم فشلوا أيما فشل، فتعاضدوا مع الساسان، وغرسوا بين أهل الأرض من يتلاعب بتاريخه، محوا كل جميل كتب عنه في التأريخ، ونقل عنهم البعض كل ساقطة ولاقطة دون بحث أو تحر، والحقيقة إن خفت صوتها لحين، لا تلبث أن تعود معزوفة على كل الألسن، ومن غفوتي هذه أعيدها لكم لعلكم تسمعون!

***

صكوك على مصطبة جماز

* تفسير الثعلبي-الثعلبي (٤٢٧ هـ)

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ. . .﴾ رَجُلَيْنِ منصوب مفعول، على معنى: وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا كمثل رجلين. نزلت في أخوين من أهل مكّة من بني مخزوم، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عبد ياليل كان زوج أمّ سلمة قبل النبيّ ﷺ والآخر كافر، وهو الأسود بن عبد الأسد بن عبد ياليل. وقيل نزلت في النبي ﷺ وفي مشركي مكّة. وهذا مثل لعيينة ابن حصين وأصحابه، وفي سلمان وأصحابه شبّههما برجلين من بني إسرائيل أخوين: أحدهما مؤمن واسمه يهوذا في قول ابن عباس، وقال مقاتل: تمليخا، والآخر كافر، واسمه فطروس، قال وهب قطفر. وهما اللّذان وصفهما الله في سورة «الصافات»، وكانت قصتهما «ما أخبرنا أبو عمرو الفراتي: حدثنا محمد بن عمران: حدثنا الحسن بن سفيان: حدثنا حيّان بن موسى: حدثنا عبد الله بن المبارك عن» (١). معمر عن عطاء الخراساني قال: كان رجلان شريكين، وكان لهما ثمانية آلاف دينار، وقيل: إنهما ورثاه عن أبيهما، وكانا أخوين

فاقتسماها، فعمد أحدهما فاشترى أرضا بألف دينار، فقال صاحبه: اللهم إن كان فلان قد اشترى أرضا بألف دينار، فإني أشتري منك أرضا في الجنة بألف دينار، فتصدّق بألف دينار.

ثمّ إن صاحبه بنى دارًا بألف دينار، فقال هذا: إنَّ فلان بنى دارًا بألف دينار، وإني اشتريت منك دارًا في الجنة بألف دينار، فتصدّق بألف دينار. ثمّ تزوج بامرأة وأنفق عليها ألف دينار فقال: إنّ فلان تزوّج امرأة بألف دينار، وإني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدّق بألف دينار. ثمّ اشترى خدمًا ومتاعًا بألف دينار، فقال: إن فلان اشترى خدمًا ومتاعًا بألف دينار، وإني أشتري منك خدمًا ومتاعًا في الجنة بألف دينار فتصدّق بألف دينار.

ثمّ أصابته حاجة شديدة فقال: لو أتيت صاحبي هذا لعلّه ينالني منه معروف. فجلس له على طريقه حتى مرّ به في حشمه، فقام إليه، فنظر إليه الآخر فعرفه فقال: فلان؟ قال: نعم. قال ما شأنك؟ قال: أصابتني حاجة بعدك، فأتيتك لتصيبني بخير. فقال: فما فعل مالك فقد اقتسمنا مالًا واحدًا فأخذت شطره وأنا شطره؟ فقصّ عليه قصته، فقال: وإنك لمن المصدّقين بهذا، أي أنّك تبعث وتجازى؟ اذهب فوالله لا أعطيك شيئًا.

واضرب لهم للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي والكفرة الذين طلبوا طردهم ﴿مَثَلاً رَّجُلَيْنِ. . .﴾ مفعولان لا ضرب ثانيهما أولهما لأنه المحتاج إلى التفصيل والبيان قاله بعضهم. وقد مر تحقيق هذا المقام فتذكر، والمراد بالرجلين إمَّا رجلان مقدران على ما قيل وضرب المثل لا يقتضي وجودهما، وإما رجلان موجودان وهو المعول عليه، فقيل هما أخوان من بني إسرائيل أحدهما كافر اسمه فرطوس، وقيل اسمه قطفير والآخر مؤمن اسمه يهوذا في قول ابن عباس. وقال مقاتل: اسمه يمليخا، وعن ابن عباس أنهما ابنا ملك من بني إسرائيل أنفق أحدهما ماله في سبيل الله تعالى وكفر الآخر واشتغل بزينة الدنيا وتنمية ماله، وروي أنهما كانا حدادين كسبا مالاً؛ وروي أنهما ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطراها فاشترى الكافر أرضًا بألف فقال المؤمن: اللهم أنا أشتري منك أرضًا في الجنة بألف فتصدق به ثم بنى أخوه دارًا بألف فقال: اللهم إني أشتري منك دارًا في الجنة بألف فتصدق به ثم تزوج أخوه امرأة بألف فقال: اللهم إني جعلت ألفًا صداقًا للحور فتصدق به ثم اشترى أخوه خدمًا ومتاعًا بألف فقال: اللهم إني أشتري منك الولدان المخلدين بألف فتصدق به ثم أصابته حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمر به في حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله، وقيل: هما أخوان

من بني مخزوم كافر هو الأسود بن الأسد ومؤمن هو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد . والمراد ضربهما مثلاً للفريقين المؤمنين والكافرين لا من حيث أحوالهما المستفادة مما ذكر آنفًا من أن للمؤمنين في الآخرة كذا وللكافرين فيها كذا؛ بل من حيث عصيان الكفرة مع تقلبهم في نعم الله تعالى وطاعة المؤمنين مع مكابدتهم مشاق الفقر .

أي اضرب لهم مثلاً من حيثية العصيان مع النعمة والطاعة مع الفقر حال رجلين ﴿جَعَلْنَا لأحدهما . . .﴾ ، وهو الكافر ﴿جَنَّتَيْنِ . . .﴾ بستانين لم يعين سبحانه مكانهما إذ لا تعلق بتعيينه كبير فائدة . وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه عجائب البلاد أن بحيرة تينس كانت هاتين الجنتين فجرى ما جرى ففرقهما الله تعالى في ليلة واحدة، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يعلم منه قول آخر، والجملة بتمامها تفسير للمثل فلا موضع لها من الإعراب، ويجوز أن تكون في موضع الصفة لرجلين فموضعها النصب ﴿مِنْ أعناب . . .﴾ من كروم متنوعة فالكلام على ما قيل إما على تقدير مضاف، وإما الأعناب فيه مجاز عن الكروم وهي أشجار العنب .

والمفهوم من ظاهر كلام الراغب أن العنب مشترك بين الثمرة والكرم وعليه فيراد الكروم من غير حاجة إلى التقدير أو ارتكاب المجاز، والداعي إلى إرادة

ذلك أن الجنة لا تكون من ثمر بل من شجر. ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ...﴾ أي جعلنا النخل محيطة بهما مطيفة بجفافيهما أي جانبيهما مؤزرًا بها كرومهما. يقال حفه القوم إذا طافوا به، وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله فتزيده الباء مفعولًا آخر كقولك غشيته به. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا...﴾ وسطهما ﴿زَرْعًا﴾ لتكونا جامعتين للأقوات والفواكه متواصلتي العمارة على الهيئة الرائقة والوضع الأنيق.

***

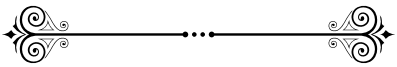

القرون المتأخرة

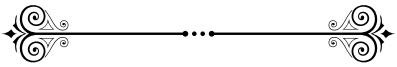

٢٧

لكل رجل نسل، يبارك به الربّ حين إخلاص، وقد كان نسلنا منذ أن أصبحت ملكًا على التنوخ وعمان مباركًا من الرب إلا في السنين التي التهى فيها الملك عن شعبه، عاملهم وكأنهم قطعان من الأغنام، لا بشر لهم حقوق، وعليهم واجبات. سقط بعض الأبناء والأحفاد لأنهم خانوا الأمانة التي ألقاها الرب عليهم، الأمانة التي أبت حملها الجبال، وتقدم لها الإنسان مدعيًا قدرته على حملها. وقد كنت ذات مجالسة مع الأبناء أُذكرُهم بأن الأمانة جزءٌ من الرجولة، من فقدها سقط في وحل الخيانة، والظلم لا يأتي به إلا ضعيف ناقص، وقد جاء في إنجيل متى ١٠:١٦ ما نصه: «الأمين في القليل أمين أيضًا في الكثير والظالم في القليل، ظالم أيضًا في الكثير».

ولا أخال أنكم تعلمون أن من نسلي ملوك وسلاطين، ولي دونهم علماء فضلاء، ومقاتلين عظماء، حارب بعضهم مع النبي العربي الذي خرج فيكم في مكة، رووا عنه الأحاديث، ومن نسلي

من قال فيهم الخليفة العربي الرابع الكرار علي بن أبي طالب، شعرًا طويلاً، حين حاربوا معه وناصروه على الحق لمقاتلة الخوارج الذين غدروا به في العراق كما غدروا لاحقًا بابنه الحسين، قال الكرار في نسلي المبارك:

الأَزدُ سِيَفي عَلى الأَعداءِ كُلِّهِمُ

وَسيفُ أَحمَدَ مَن دانَت لَهُ العَرَبُ

وقال:

الأَزدُ أَزيَدُ مَن يَمشي عَلى قَدَمٍ

فَضلاً وَأَعلاهُمُ قَدراً إِذا رَكِبوا

وبإرادة الرب العظيم خرجت من أرضي التي أحببت مغاضبًا، لانتصر للعرب في كل مكان وامتدت فيه مملكة العرب في حياتي، وفي حياة سلسلة الملوك العظام من أبنائي وأحفادي وأسباطي، ومن العلماء المبرزين، والمقاتلين الأشداء، وتفجرت القبائل كالماء من الصخور الصلبة، انتشرت في الجزيرة العربية وعمان والبحرين وفي قلب أراضي فارس حتى يومكم هذا، وهم من

الأزديين الذين يعتزون بعروبتهم برغم الاضطهاد الذي يلقونه في بلاد الساسان الفارسية.

فلكم يا أهل الحياة العابرة، أن ترتاحوا الآن بعدما أتممتم حكايتي، ونهلتم منها تأريخكم الحقيقي وتأريخ أجدادكم العظماء، فبارك الربُّ لكم الأعمار، وإن لحقتم بنا فأهلًا وسهلًا في مروج الجنان، تنعمون في غفوة الرُّمَّان، وما أحلى غفوة الرُّمَّان لو تعلمون، أيّها الصالحون. ولكم الهداية.

***

الفهرس

الموضـــــوع	الصفحة
المقدمة	٣
القرن الثاني للميلاد	٧
القرن الثالث للميلاد	١٤٧
القرون المتأخرة	٢١١
الفهرس	٢١٧

إبراهيم سعيد الدعجاني

الميلاد : ذوالحجة ١٣٨٠ - هجريـًا، ١٩ مايو ١٩٦١م.

جدة، المملكة العربية السعودية

الإقامة : الخبر، المملكة العربية السعودية

المؤهلات التعليمية :

- بكالوريوس إدارة دولية ، وست سسكس بريطانيا ١٩٨٤

- ما جستير في المالية والاستثمار جامعة سالفورد بريطانيا.

النشاط المهني :

شاعر، روائي.

نشاطه العلمي والأدبي :

أبحاث وأوراق علمية أكاديمية عديدة باللغتين العربية والإنجليزية في عدد من الصحف والمجلات المتخصصة. مزج بين القصة والرواية وكتب الشعر العمودي، والتفعيلة والنثر.

أعماله الأدبية والإصدارات :

فلا تقل لهما أُفٍ مجموعة قصصية عن بر الوالدين، الكتاب يحتوي على قسمين:

*** القسم الأول قصص قصيرة جاءت تحت العناوين الآتية:**

- وبالوالدين إحسانا.
- وقل ربي ارحمهما كما رباني صغيراً.
- وعدد آخر من القصص.

*** القسم الثاني فهي من ترجمة الكاتب عن القصص العالمية منها:**

- الطاسة الخشبية للكاتبة أوشا بنزال.

- ذات العين الواحدة قصة كورية حقيقية لم يرد فيها اسم المؤلف.
- إضاءات من قصص التأريخ الإسلامي للتأكيد على أن بر الوالدين قاعدة شرعية وإنسانية مقررة من زمن قديم ومعتمد في كافة دول العالم.
- التاجر بهراني: رواية قصيرة.
- ديوان رثاء الوالدين في الشعر العربي المعاصر، دار بدائل، مصر، ٢٠١٩م.
- ديوان (بعضٌ مني) دار الحازمي للنشر، السعودية ٢٠١٩م.
- ديوان (محضُ فراغ)، دار بدائل، مصر.
- ديوان (سطوع بلا قاع) دار الحازمي للنشر ٢٠٢١م.
- رثاء الزوجات في الشعر العربي، دار اقرأ، ٢٠٢٣م.
- ديوان، نتوء على صدر البقاء، دار ابن الرشيق، ٢٠٢٤م.

***

إصدارات مؤسسة الحازمي للنشر

م	عنوان الكتاب	نوع الكتاب	اسم المؤلف
١	التحقيق الإداري والعقوبات التأديبية في النظام السعودي	رسالة ماجستير	مريم حلل
٢	بعض مني	ديوان شعر	إبراهيم الدعجاني
٣	معايير الشعر عند محمد الفيتوري	نقد أدبي	شمعة جعفري
٤	بلا عنوان	ديوان شعر	أحمد الحربي
٥	البنية السردية عند إبراهيم شحبي	نقد أدبي	أحمد هروبي
٦	خيال الأسئلة	ديوان شعر	أسامة الحربي
٧	إسراء شاعر	ديوان شعر	عبدالصمد زنوم
٨	من القلب	فكري	محمد المنصور
٩	الأسئلة الصفية فنون ومهارات	تربوي	حشيمة الشرقي
١٠	من وحي صمتي	نصوص أدبية	فاطمة عبدالعزيز
١١	جياد لا تكبر	ديوان شعر	ميمون السبعي
١٢	الدرر المحمدية	ديوان شعر	محمد الصحبي
١٣	العرب والضمير المستتر	مقالات	محمد المنصور
١٤	عبق المخلاف في تراحم الأسلاف	تراجم	محسن شراحيلي
١٥	أوراق من خزف	نصوص أدبية	رحمة الخضري
١٦	دليلك التربوي في تعليم المعاقين عقليًا	تربوي	صالحة معافا

إصدارات مؤسسة الحازمي للنشر

م	عنوان الكتاب	نوع الكتاب	اسم المؤلف
١٧	قصتي مع اللغة الإنجليزية	تربوي	فؤاد الحازمي
١٨	يوم لا يُنسى	قصص قصيرة	هند طميحي
١٩	شعر سلمان محمد الحكمي الفيفي	نقد أدبي	صالحة صهلولي
٢٠	خاطرة من قلبين	نصوص أدبية	فاطمة شاجري
٢١	رواد وإعلام التعليم في صاطمة	تراجم	على مدخلي
٢٢	تجربتي في الإشراف التربوي	تربوي	نعمة الفيفي
٢٣	أصغ إلى عقلك	فكري	عصام موسى
٢٤	مخاتلة	قصص قصيرة	ماجد مشافي
٢٥	قبلة جبين	قصص قصيرة	محمد المنصور
٢٦	خمائل عنبرية	نصوص أدبية	عنبر المطيري
٢٧	ديوان نفثات الروح	ديوان شعر	ملهي حاوي
٢٨	معالم في العقيدة الإسلامية	ثقافي	أحمد جابر الجعفري
٢٩	استخدام أدوات إدارة الجودة الشاملة لتطبيق الجودة بإدارة المستشفيات في المملكة العربية السعودية	رسالة ماجستير	علي مفرح الشعواني
٣٠	أرواح فوق الرمال	قصص قصيرة	عبدالله المطمي
٣١	إشراقتك أضاءت حياتي	نصوص أدبية	خالد أبو طربوش
٣٢	صدى البوح	شعر	أمل المالكي
٣٣	النظرة الضيقة	علم نفس	ضيف الله
٣٤	قلوب بيضاء	قصص قصيرة	علي أحمد معشي
٣٥	الأربعون من أسباب السعادة	ثقافي عام	زاهية الهلالي

إصدارات مؤسسة الحازمي للنشر

م	عنوان الكتاب	نوع الكتاب	اسم المؤلف
٣٦	أرجوحة تالين	قصص قصيرة	محمد الريَّاني
٣٧	سطوع لا قاع له	قصص عربية	إبراهيم الدعجاني
٣٨	في السرَّد الأدبي السعودي - فنيات التشكيل وجماليات القراءة	نقد أدبي	إبراهيم سعيد السيِّد
٣٩	ق.س.ك قصة ست كلمات	قصص عربية	عبده فايز الزبيدي
٤٠	كاتليا	نصوص أدبية	حافظ دويري
٤١	جازان في رؤى شعرائها	شعر	جواهر بن علي دوشي
٤٢	عابرون من طين	قصص قصيرة	خالد آل سليم
٤٣	فوضى الجسد	قصص اجتماعية	ريم العنزي
٤٤	ليطمئن قلبي	نصوص أدبية	أمنة حكمي
٤٥	أمل البوح الصامت	ديوان شعر	أمل داود الدميس
٤٦	موقع سوق حباشة	تاريخي	غازي أحمد علي الفقيه
٤٧	مزار الذكريات	شعر	محمد جبران عسيري
٤٨	أفنان سردية	قصص قصيرة	محمد ربيع مدخلي
٤٩	قصة وطن	قصص أطفال	ميمونة محمد منصور مدخلي
٥٠	من أعلام الأشراف الصملة الذروات	تراجم	عبدالله أحمد قهار الصميلي

إصدارات مؤسسة الحازمي للنشر

م	عنوان الكتاب	نوع الكتاب	اسم المؤلف
٥١	روح الأماني	الشعر العربي	أمل عبدالله المالكي
٥٢	المنسيون	قصص قصيرة	فاطمة العامري
٥٣	ندى السحاب	ديوان شعر	أمل عبدالله المالكي
٥٤	بوح الصمت	نثر عربي	أحلام أحمد البكري
٥٥	البديلة	قصص قصيرة	مسعدة اليامي
٥٦	المختصر في الوقاية من الإشعاع	قصص قصيرة	زكية محمد مدخلي
٥٧	وجوه وشخصيات من محافظة صامطة	تراجم	على بن محمد مدخلي
٥٨	التيسير إلى أصول في التفسير	مناهج التفسير	الحسين عداوي
٥٩	دروس رمضان -ثلاثون درسًا في الصيام-	الصوم	محمد بن عطية النجمي
٦٠	صبيا الذاكرة والتاريخ	تاريخ	حسين ضيف الله أحمد مريع
٦١	مكافأة نهاية الخدمة	قصص قصيرة	أحلام البكري
٦٢	التعريف ببعض كتب العقيدة في منطقة جازان	عقيدة	أحمد جابر إبراهيم جعفري
٦٣	ثم انبرت أيام هجر	نصوص نثرية	خالد ربيع الشافعي
٦٤	Simple Virology64	علمي	د.زكي منور
٦٥	الأمانة العظيمة	إسلامي	أحمد بن سلمان بن سعيدة الشهري
٦٦	متقاعد لا تكلمني	رسائل	أحلام أحمد البكري
٦٧	ليطمئن قلبي	أدبي	آمنة حسن حكمي

كانت عيناه المغمضتان من المرض، تذرف الدموع بغزارة، وأذكر -أيضًا- أنني كنت ممسكًا بسائرة فوق رأس أمي التي كانت تحلب البقرة، سمع أنين أختي الصغيرة، قام على قدميه، تلمس المكان، أرتكز على «المرزح» وهو العامود الذي يتوسط الغرفة ويسند سقفها، خلع عمامته المربوطة على رأسه، مسح بطرفها دمعة كانت مسرعة إلى خده، ثم غطى بها جسدها.

وحين زادت عليها الحمى، راحت ترتعد من شدة البرد، مصدرة صوتًا غريبًا، ونفسًا متسارعًا، وضع أبي يده على جبينها، نظرت إليّ عينيه طويلاً، مسحت عليهما، وألقت نظرات مستعجلة علينا، ثم أغمضت عينها، بعدما شهقت شهقة، شعر الجميع بأزيز يخترق صدرها، ولفظت آخر الأنفاس، بكى أبي بكاءً شديدًا، وبكينا على بكاءه، مع أننا تعودنا على قرع الموت لأبوابنا، والتقاطه الأطفال من بيننا

تصميم الغلاف

فهد الدعجاني